المبحث الأول : عصره

١ - الحالة السياسية

حدثت أحداث خطيرة فى الأندلس فى أوائل القرن الخامس الهجرى أدت إلى سقوط الخلافة فى قرطبة ، وابتداء فترة ملوك الطوائف ، حيث انتهى عصر الأمن والهدوء ، والاستقرار ، والتقدم ، والرخاء ، وبدأ عصر الصراع المرير على السلطة ، وشن الحروب الدامية التى لم يكن من نتائجها سوى الدمار ، والتخلف ، والتأخر فى شتى ميادين الحياة ، وبذلك لم تعد قرطبة كما كانت مركز إشعاع علمى وثقافى ، ومركز ثقل سياسى واقتصادى وعمرانى ، وقد لقيت هذه الفتن والاضطرابات عناية من المؤرخين والباحثين قديما وحديثا ، وأفاضوا فى الحديث عنها (١) ، ويصور لنا هذا الواقع المؤرخ الأندلسى أبو مروان بن حيان فيقول : « هذه الفتنة البربرية الشنعاء المدلهمة ، المفرقة للجماعة ، الهادمة للملكة المواثلة المغربة الشأو على جميع مامضى » (٢) وهذا ماحدث فعلاً حيث أدت هذه الفتنة إلى تفكك الدولة الأندلسية الكبرى ، وتشعبها ، وانقسامها إلى دويلات متعددة متناحرة كل منها يقوم على حدة ، لا تربطها بالأخرى أى علاقة سوى الصراع والمنافسة ، والتهالك على إثارة الفتن والحروب بغية التوسع ، والغنيمة ، ومن هنا أطلق على هذه الفترة (عصر الطوائف) الذى بدأ على إثر انهيار الدولة العامرية فى أواخر القرن الرابع ، وبالتحديد سنة ٣٩٩ واستمر زهاء سبعين أو ثمانين عاماً ، ولا يهمنا فى هذه العجالة أن ندخل فى تفاصيل الأسباب التى أدت إلى سقوط الدولة العامرية ، وقيام دول الطوائف ، وما تبع ذلك من أحداث بقدر مايهمنا أن نقف على أبرز الجوانب السياسية لمدينة إشبيلية فى القرن الخامس ، حيث ينتمى إليها أبو الوليد إسماعيل بن عامر الحميرى

---

(١) انظر تفاصيل ذلك فى الذخيرة القسم الأول المجلد الثانى ٨٦ ، والبيان المغرب (٣/٥٠ - ١٥٠) ونفح الطيب (٤/٥ - ٤٧) وكتاب دول الطوائف للأستاذ عبد الله عنان ١١٧ - ٣٨١ .

(٢) الذخيرة القسم الأول المجد الثانى ٨٦ ، ٨٧ .

مؤلف كتاب البديع ، وهى مدينة عريقة تعد من أقدم مدن الأندلس ، وأعرقها وأشهرها ، وعاشت أحداثاً عديدة عبر العصور ، وفى عصر دول الطوائف كانت أعظم هذه الدول شأنا ، وأقواها شوكة وسلطانا ، وأكثرها تفوقاً فى نواحى الحياة السياسية والاقتصادية ، والثقافية ، وأروعها مجتلى ومنظراً وطبيعة ، وأزهاها أدبا وشعراً ، تربع على حكمها بنو عباد إبتداء من القاضى أبو الوليد إسماعيل بن عباد الذى كان قاضيا لإشبيلية منذ أيام المنصور بن أبى عامر ، والذى أحس بأخطار الفتنة التى تنذر بانهيار الدولة العامرية ، مما جعله يعمل فى صمت وهدوء ، ويعد العدة للاستئثار بحكم تلك المدينة العظيمة ، وقد كان رجلاً فاضلاً يتسم بالعلم والورع ، وينتمى إلى أعرق البيوتات العربية الأندلسية إلى جانب مكانته الاجتماعية والسياسية فى الدولة العامرية ، حيث تقلب فى عدة وظائف كبرى . منها ولاية الشرطة لهشام المؤيد ، وخطة الإمامة ، والخطابة بالجامع الأعظم ، كما عرف عنه الدهاء والسخاء ، وكل ذلك قد دفع بالكثير من الزعماء ، والأكابر فى الأسر العربية للتعاون معه ، ومؤازرته مما هيأ له السبيل لتحقيق هدفه وغرضه من الاستئثار بالسلطة فى أشبيلية ساعده على ذلك أمور . من أهمها موقفه المعلن فى التصدى للبربر وكفكفة أطماعهم ، وتقليم أظفارهم ، كما ساعده على ذلك تذبذب حكم بنى حمود بين قرطبة وإشبيلية ، وما توالى عليهم من أحداث أضعفت جانبهم ، ومكنت بنى عباد فى إشبيلية ، ولا سيما بعد أن ثار يحيى بن على بن حمود فى أوائل سنة ٤١٢ على ابن أخيه القاسم بن حمود الذى تولى الخلافة فى قرطبة بعد مقتل أخيه على أواخر سنة ٤٠٨ وزحف يحيى بقواته على قرطبة فغادرها القاسم فى نفر من صحبه ، وقصد إلى إشبيلية ، وهناك تسمى بالخلافة ، وتلقب بالمستعلى ، ولكنه لم يدم طويلاً بها حيث عاد إلى قرطبة على أثر خلع ابن أخيه يحيى ، وتمت له البيعة مجدداً فى ذى الحجة سنة ٤١٣ هـ ، وفى الفتره التى أقام بها المستعلى فى إشبيلية كان قد قرّب إليه أبا القاسم محمد بن اسماعيل بن عباد ، وأقره فى ولاية القضاء بعد موت أبيه إسماعيل ، وبذلك أتيحت له الفرصة لكى يعمل على توطيد سلطانه ، ونجح فى ذلك إذ استطاع بمعاونة

ومسادنة أعيان وزعماء البلد ، وعامة الشعب أن يحد من سلطان بنى حمود ، وأشياعهم من البربر على أشبيلية وينفرد بالرياسة الشرعية لها فى أواخر سنة ٤١٤ ، ويصبح قاضيها وحاكمها السياسى ، وشرع بعد ذلك للعمل على تعزيز جانبه ، وتقوية سلطانه ، وحشده العدة ، والعتاد والرجال للتوسع ، والتخلص من الأعداء والمنافسين ، والمتربصين به من أمثال بنى حمود وشيعتهم من البربر ، وكان أول صدام عسكرى اشترك فيه أبو القاسم تمثل فى قتاله مع بنى الأفطس أصحاب بطليموس ، وهم جيرانه من الشمال ، وانتهى هذا الصدام بهزيمة ساحقه لبنى عباد سنة ٤٢٥ ، ومن أبرز الأحداث السياسية لبنى عباد فى إشبيلية إعلان القاضى ابن عباد لظهور هشام المؤيد ، وإقامته خليفة بأشبيلية حينما أخذ يحيى المعتلى يرهقه بغاراته المتوالية على إشبيلية ، وينذر بوجوب استردادها لكونها من أملاك الحموديين ، فما كان من القاضى ابن عباد إلا أن أعلن فى أواخر عام (٤٢٦) أن هشاماً المؤيد قد ظهر ، وأنه كان مختفيا ، ولم يمت ليدحض بذلك دعوى الحموديين فى الخلافة بظهور الخليفة الشرعى ، وقد تحدث المؤرخون قديما وحديثًا عن هذه القصة ، أو الأسطورة على الوجه الصحيح ، وقد جنى منها ابن عباد مايريد بعد أن أشاعها فى سائر أنحاء الأندلس ، بل استطاع ابن عباد أن يتتبع يحيى المعتلى فى قرمونة حيث أرسل لها قوة مع ولده إسماعيل الذى تمكن من التغلب على يحيى وقتله فى المحرم سنة ٤٢٧ ، ورد ابن عباد قرمونة إلى صاحبها السابق حليفه محمد بن عبد الله البرزالى الذى سرعان ماحصل بينه وبين ابن عباد صدام مسلح على إثر استرداد ابن عباد لقرمونة منه ، وانتهى هذا الصدام بهزيمة ابن عباد ، وقتل ابنه إسماعيل ، وكان لهذه النكبة أسوأ الأثر فى نفسه ، ويعد القاضى محمد بن إسماعيل بن عباد هو المؤسس الفعلى لدولة بنى عباد ، وعلى يديه قام كيانها الكبير ، وظل يرعاه إلى أن أدركته المنية فى نهاية جمادى الأولى سنة ٤٣٣ ، وتعاقب عليه من بعده أبناء بنى عباد ، ومن أبرزهم أبو عمرو عباد بن محمد بن إسماعيل الملقب بالمعتضد بالله ، الذى تولى على إثر موت أبيه القاضى محمد بن إسماعيل سنة ٤٣٣ ، واستطاع أن يمد نفوذه وسلطانه على سائر

إمارات الغرب الصغيرة على مدى عشرين عاماً حتى أصبحت مملكة بنى عباد تشمل سائر الأراضى الممتدة من شاطئ نهر الوادى الكبير غرباً حتى المحيط الأطلنطى ، بل استطاع أن يمتد إلى أكثر من ذلك ، وعرف بالقسوة والشدة ، وصفه لسان الدين الخطيب (بأنه كان شديد الجرأة قوى المنة عظيم الجلادة مستهينا بالدماء) [1] كما كان شاعراً أديبا محباً للعلم والأدب ، يقول الحميدى « كان أبو عمرو بن عباد صاحب إشبيلية من أهل الأدب البارع ، والشعر الرائع ، والمحبة لذوى المعارف ، وقد رأيت له سفراً صغيراً فى نحو ستين ورقة من شعر نفسه » [2] وقال ابن القطان (وكان لأهل الأدب عنده سوق نافقة ، وله فى ذلك همة عالية ، ألف له الأعلم أديب عصره ، ولغوى زمانه شرح الأشعار الستة ، وشرح الحماسة ، وألف له غيره دواوين وتصانيف لم تخرج إلى الناس) [3] وتوفى رحمه الله فى جمادى الآخرة سنة إحدى وستين وأربعمائة بعد ولاية دامت زهاء ثمانية وعشرين عاماً ، وظلت دولة بنى عباد بإشبيلية قوية فتية إلى أن أدركها الهرم فى أواخر عهد المعتمد بن عباد ، بعد أن مرت بأحداث دامية محزنة كان من أشدها وقوعه المعتمد بن عباد أسيراً فى أيدى المرابطين حيث أصبح يقاسى من شظف العيش ، وذل الأسر ، ومرارة الحرمان ، وقسوة الغربة ، وتشرد الولد والأهل ، وظل على هذه الحال حتى وافاه الأجل عام ٤٨٨ ، وبذلك دالت دولة بنى عباد ، وزال معها حكم ملوك الطوائف ، وحل محلهم المرابطون [4] .

٢ - الحالة الاقتصادية والاجتماعية :

عرف عن إشبيلية أنها بلد زراعى ، لما تمتاز به أرضها من الخصوبة ، والنماء ،

---

(١) إعمال الأعلام ١٥٦ .

(٢) جذوة المقتبس رقم ٦٧٢ ، والبيان المغرب (٢٨٥/٣) .

(٣) البيان المغرب (٢٨٤/٣) .

(٤) انظر تفاصيل سقوط إشبيلية فى الحلة السيراء (٦٦/٢) والكامل لابن الأثير (١٥٥/٨) ونفح الطيب (٣٧٧/٥) وكتاب دول ملوك الطوائف للأستاذ محمد عبد الله عنان ، وإشبيلية فى القرن الخامس للدكتور صلاح خالص .

وغزارة الماء ، ويطل عليها جبل الشرف الذى يصفه صاحب الروض المعطار بأنه « شريف البقعة ، كريم التربة ، دائم الخضرة » (١) .

ولا غرو إذاً أن تكون أرضا زراعية خصبة معطاء تدر على أهلها الخير ، وتزهو بذلك على بقية الأمصار الأندلسية الأخرى التى يمتد عطائها إليها ، وبذلك تصبح الزراعة من أهم المصادر التجارية لأهلها ، حيث كان يصدر منها زيت الزيتون الذى يعد من أطيب أنواع الزيوت ، إلى جانب القطن « الذى يجود بأرضها ويعم بلاد الأندلس ، ويتجهز به التجار إلى أفريقية وسبحلماسة) (٢) ولم تقتصر الحاصلات الزراعية على الزيتون ، والقطن ، بل هناك أنواع عديدة من مثل الحنطة والشعير ، والقطن والتفاح ، والعنب ، والرمان ، وقصب السكر ، وغيرها وتمثل الحاصلات الزراعية فى أشبيلية مرتكزاً أساسيا لما قام بها من صناعات متنوعة من أبرزها استخراج الزيوت من الزيتون ، وصناعة النسيج ، ولوفرة المعادن بأرض إشبيلية قامت بها بعض صناعات التعدين ، من مثل صناعة السفن وبناء المراسى ، وبعض الأدوات المعدنية كالسكاكين والسيوف ، والاسطرلابات (٣) .

أما المجتمع الإشبيلى فيتكون من الأصول العربية التى نزحت أول مانزحت من حمص الشام عند الفتح الإسلامى للأندلس ، واتخذت من إشبيلية موطنا ومقاماً ، ويمثلون قبائل عربية متعددة ، فمنهم اللخميون الذين ينتمى إليهم بنو عباد حكام إشبيلية ، ومنهم بنو زهرة ، والبلويون ، والهوازينون ، والحضرميون ، ومن هذه الأصول برز أصحاب السيادة والرياسة ، والصدارة بإشبيلية ، مما كان له التأثير الكبير فى مختلف نواحى الحياة السياسية والاجتماعية ، وإلى جانب المستوطنين العرب وجد العنصر الأسبانى من سكان البلاد الأصليين ، وقد بقى بعضهم على دينه ، وعرفوا باسم العجم ، أو المستعربين ، أما من أسلم منهم فقد عرف بالمسالمة ، وامتزج هؤلاء

---

(١) الروض المعطار ٥٩ .

(٢) المصدر السابق ٥٩ .

(٣) انظر حول معادن الأندلس والصناعات بها نفح الطيب (٢٠١/١) (٢٠١/١) .

بالعرب ، وتزوج كل من الآخر ، ونتج عن ذلك عنصر متميز تمثل فى الأندلسيين المولدين الذين حملوا إلى جانب موروثاتهم العربية بعض الموروثات الأسبانية ، وأصبح هذا العنصر هو الذى يمثل الغالبية بل أصبح المرآة التى تنعكس عليها طوابع الحياة الاجتماعية بشتى ألوانها ، وصورها ، وعلى الرغم من تعدد العناصر التى يتكون منها المجتمع الإشبيلى إلا أن روح التأثر والتلاحم كانت هى السائدة ، لتقارب الميول ، وسيادة الأسلام واللغة العربية التى تعد اللغة الرسمية للمجتمع فى مختلف أمور الحياة ، ومظاهرها الثقافية والفنية ، وقد انعكست ألوان شتى من الأوضاع السياسية والاجتماعية والبيئية على حياة الفرد الإشبيلى ، فأثرت فى سلوكه وحواسه ومشاعره تأثيراً واضحا ملموساً إذ غدا من بعض الأحداث السياسة المريرة المتتاليه يعيش فى قلق وعدم استقرار ، وربما أدت به بعض مظاهر الحياة الاجتماعية إلى الأغراق فى اللهو والحياة الصابئة ، كما أن البيئة الطبيعية الرائعة الغناء قد ساعدت على رهافة إحساسه ، وتعشقه لجمال طبيعة بلدة ، وتفاعله مع هذه الطبيعة ، ورقة ذوقه واحساسه بها .

٣ - الحالة الثقافية :

استظلت إشبيلية بظلال حركة ثقافية مزدهرة غاية الازدهار فى مختلف جوانبها المتعددة كالعلوم الدينية من قرآن وتفسير وحديث وقراءات وعقيدة وفقه ، والعلوم اللغوية من نحو وصرف ولغة وعروض وبلاغة ونقد ، إلى جانب العلوم الأخرى كالتاريخ والتراجم والسير ، والجغرافيا والفلسفة ، والنبات والطب ، والهندسة والحساب ، وساعد على ذلك حكام أشبيلية من بنى عباذ حيث اتسموا بالحرص على العلم ، والعمل على نشره وإشاعته على الرغم من انشغالهم بالقتال والحروب من أجل ترسيخ قواعد الحكم ، وتوسيع رقعة المملكة ، ونبغ من بنى عباد شعراء وأدباء مشهورون كالمعتضد بن عباد ، والمعتمد بن عباد ، وكانت ميولهم واضحة إلى الأدب من شعر ونثر مما أدى إلى إزدهار هذين اللونين بشكل ملموس ، ومع ذلك كان

للعلوم الأخرى مكانتها ومنزلتها وذيوعها ، فمن حيث العلوم الدينية كانت إشبيلية تزخر بالعلماء من المحدثين والفقهاء أمثال الفقيه المحدث محمد بن ثابت بن عياش الأموى [1] (ت ٤٣٥) ، وإصبغ بن راشد بن إصبغ اللخمى [2] (ت ٤٤٠) والفقيه عمر بن الحسن بن عبد الرحمن بن عمر الهوزنى ، وكان متفننا فى العلوم آخذاً من كل فن بحظ ، مات مقتولاً على يد المعتضد سنة ٤٦٠ ، ومنهم الحافظ العالم الفقيه المحدث المؤرخ الأديب أبو عمر بن عبد البر القرطبى (ت ٤٦٣) وغيرهم ، أما علوم اللغة العربية فقد حظيت بالعناية التامة ، والاهتمام الكبير من الإشبيليين ، ونبغ فيهم علماء ضليعون مشهورون فى اللغة والنحو من ألمعهم أبو بكر محمد بن الحسن بن عبد الله الزبيدى الإشبيلى صاحب كتاب طبقات النحويين ، واختصار العين ، وما يلحن فيه عوام الأندلس (ت ٣٧٩) [3] ومنهم سعيد بن عبد الله بن دحيم الأزدى القرشى النحوى ، وكان من الحفاظ فى اللغة وذى العلم والدراية الفائقة بكتاب سيبويه [4] وكذلك الشأن بالنسبة للعلوم الأخرى التى لم يغفل عنها الأندلسيون من أبناء إشبيلية ، وكان لهم منها نصيب وافر كالتاريخ ، وبعض العلوم التطبيقية ، أما الأدب شعراً ونثراً فقد كان لها منه القدح المعلى ، والذروة فى العناية والاهتمام بهما ، والانصراف إليهما لما سبق أن أشرنا إليه من ميول بنى عباد حكام إشبيلية واهتمامهم بالأدب ، فقد كان القاضى أبو القاسم بن محمد بن إسماعيل بن عباد يقرض الشعر ، وله مقدرة وموهبة جيدة فى ذلك تتجلى فى تلك المقطوعات التى أوردها له ابن بسام فى الذخيرة [5] ، تناول فيها وصف بعض الأزهار والحدائق ، وبعض الفخر والحماسة ، ومن هذه المقطوعات قوله فى وصف الياسمين [6] :

---

(١) الصلة لابن بشكوال (٥٢٦/٢) .
(٢) المصدر السابق (١٠٩/١) .
(٣) انظر بغية الوعاة (٨٤/١ ، ٨٥) .
(٤) انظر إنباه الرواة (٥٥/٢) .
(٥) الذخيره القسم الثانى المجلد الأول ١٣ .
(٦) البديع فى وصف الربيع ٩٣ .

وياسمين حسن المنظر يفوق فى المرأى وفى المخبر
كأنه من فوق أغصانه دراهم فى مطرف أخضر

وكان ابنه المعتضد أرسخ منه قدماً ، وأكثر قدرة على نظم الشعر ، وله ديوان من الشعر فى ستين ورقة ، مما يفسح له مكانا رحباً بين شعراء عصره [1] وشعره على وجه العموم يتسم بالرقة ، والسهولة والوضوح فى التعبير عن أحاسيسه ومشاعره ، وقل أن نجد من أسرة بنى عباد وأمرائهم من لا يقرض الشعر ، ويجالس الشعراء والأدباء ويهتم بالأدب ، ولا غرو إذاً أن تكون سوقه هى الرائجة فى تلك الحقبة ، وأن تكون الحركة الأدبية بإشبيلية واسعة النشاط ، كما كان من آثار ذلك أن التف حول بنى عباد مجموعة من الشخصيات الأدبية المرموقة اللامعة فى إشبيلية ، ومن أبرزهم أبو عامر بن مسلمة ، وأبو جعفر بن الأبار ، وأبو بكر بن القوطية ، وأبو الوليد إسماعيل ابن عامر الحميرى مؤلف كتاب البديع فى وصف الربيع .

* * *

(١) الذخيرة القسم الثانى المجلد الأول ٢٣ .

المبحث الثانى : حياته

١ - اسمه ونسبه وأسرته :

فى أغلب المصادر اسمه إسماعيل بن محمد بن عامر بن حبيب ، وأغفل كل من صاحب الذخيرة ، ورايات المبرزين [١] ذكر اسم جده عامر ، واقتصر صاحب نفح الطيب [٢] من اسمه على (إسماعيل بن حبيب) فلم يذكر اسم أبيه محمد واسم جده عامر ، فى حين أننا نجد صاحب كتاب التكملة لكتاب الصلة [٣] يضيف جداً آخر من جدوده وهو (أحمد) بين اسمى أبيه محمد ، وجده عامر ، فهو عنده (إسماعيل بن محمد بن أحمد بن عامر الحميرى) وأجمعت المصادر على أن كنيته هى أبو الوليد ، وقد وردت عند ابن بسام وابن سعيد عبارة (الملقب بحبيب) بعد ذكر اسم أبيه محمد ، وهذه العبارة مثار احتمال فى أن تكون لقباً لأبى الوليد أو لقباً لأبيه غير ابن الأبار فى التكملة يقطع هذا الاحتمال ويؤكد أن أباه هو الذى يلقب بحبيب [٤] ، وانفرد ابن الأبار حسب علمى ومابين يدى من مصادر بذكر نسبته إلى حمير ، وهذا يعنى أن أبا الوليد ينتمى إلى أحد القبائل اليمنية المشهورة التى تنتمى إلى حمير بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان [٥] ولهذه القبيلة شأن كبير إذ كان منها ملوك اليمن من التبابعة ، وتفرق عدد من بنى حمير فى الأقطار فمنهم من بقى فى اليمن ومنهم من حل بالعراق والشام ، وطائفة منهم حلت بالأندلس مع بداية الفتح الإسلامى ، بل من أعقابهم من حل بإشبيلية من مثل عبد الله بن محمد بن زكريا بن القاضى يحيى كما ذكر ابن حزم فى جمهرة أنساب العرب [٦] ، وربما كان من هؤلاء صاحبنا أبو الوليد الذى ينتسب كما عرفنا إلى حمير .

---

(١) انظر الذخيره القسم الثانى المجلد الأول ١٢٤ ، ورايات المبرزين ٣٩ .
(٢) نفح الطيب (٤٢٧/٨) .
(٣) التكملة لكتاب الصلة (١٨٠/١) .
(٤) انظر حول ذلك المصادر السابقة .
(٥) جمهرة أنساب العرب ٤٣٢ ، وانظر نهاية الأرب فى معرفة أنساب العرب ٢٢٢ .
(٦) المصدر السابق ٤٣٣ .

أما أسرته فلا تعرف عنها الشيء الكثير ، وكل مانعرفه أن أباه كان من ذوى الجاه والثراء والمكانة العالية بإشبيلية فى زمن القاضى ابن عباد ، ولا أدل على ذلك من أن بعض الشعراء المشهورين فى إشبيلية كانوا يخصونه بالمدح من مثل أبى جعفر ابن الأبار ، وابن القوطية ، أبى بكر بن نصر ، وقد اختار أبو الوليد فى كتابه البديع فى وصف الربيع بعض المقطوعات الموصولة بمدح أبيه (١) منها أبيات ابن القوطية التى جاء فيه قوله :

أُنْس المعالى بابن عامر الذى   عمرت بدولته منازلها الدّرُسْ (٢)

ومنها أبيات للفقيه أبى الحسن بن على موصولة بمدح أبيه جاء فيها :

عزة فى طباعه وعلو   قد أنافا به على العلياء

كحبيب بن عامر فهو فذ   فى اقتناء العلى وكسب الثناء (٣)

وقد أشار ابن الأبار فى التكملة إلى أخيه أبى زيد محمد بن محمد بن عامر ، وذكر أنه شيخ من شيوخ أبى بكر بن العربى مما يدل على أن أخاه هذا كان يحتل مكانة علمية مرموقة وناهيك أنه شيخ من شيوح أبى بكر بن العربى الذى يعد من العلماء المشهورين « قدم إلى إشبيلية بعلم كثير لم يدخله أحد قبله ممن كانت له رحلة إلى المشرق ، وكان من أهل التفنن فى العلوم والاستبحار فيها والجمع لها مقدما فى المعارف كلها » (٤) .

٢ - نشأته وصلاته الاجتماعية والأدبية :

درج أبو الوليد على ثرى إشبيلية وليداً وفتح عينيه على مباهجها وطبيعتها الفاتنة ، وترعرع فى أحضانها يضمه بيت عرف بالوجاهة وعلو المكانة ، والتطلع إلى

---

(١) انظر البديع فى وصف الربيع ٥٤ ، ١١٤ ، ١٥٦ .

(٢) المصدر السابق ١٥٦ ، ١٥٧ .

(٣) المصدر السابق ١٤٢ .

(٤) انظر وفيات الأعيان (٤/٢٩٦) حيث ترجمته ابن العربى المتوفى سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة .

العلم والتذوق للأدب إذ كان أبوه من وجهاء أشبيلية كما عرفنا ، وكان أخوه محمد من العلماء المرموقين ، وأحد شيوخ أبى بكر بن العربى ، وكانت إشبيلية وقتئذ مصدر إشعاع للعلم والثقافة ، ومهوى أفئدة العلماء والأدباء والشعراء حيث كانت تستظل بحكم بنى عباد ، وقد عرفنا أنهم كانوا عاملاً قوياً فى بعث الحركة العلمية والثقافية ، وإثراء الساحة الأدبية بالشعراء والأدباء ، فى هذا الوسط نشأ أبو الوليد فلا غرو إذاً أن تتفتح مواهبه الأدبية والعلمية منذ وقت مبكر ، « فكان وهو ابن سبع عشرة سنة ينظم النظم الفائق وينثر النثر الرائق » (١) ومن هنا بدأت تتحدد شخصية أبى الوليد ، وتزدهر مواهبه المتعددة ، وتتسع صلاته بالشخصيات المرموقة فى المجتمع الإشبيلى من الحكام والوجهاء والوزراء والأدباء والشعراء ، ومن أبرز ذلك صلته بالقاضى أبى القاسم محمد بن إسماعيل بن عباد ذى الوزارتين الذى أهدى له أبو الوليد كتابه البديع فى وصف الربيع وتردد ذكره فيه أكثر من موطن (٢) هو وغيره من بنى عباد بصورة توحى بقوة الصلة بين المؤلف وبنى عباد ، فها نحن نرى أبا الوليد ينشد بين يدى القاضى ابن عباد أبياته ومنها قوله :

انظر إلى النهر واعجب ... لحسن مرآه وارضهْ
قد حل بين رياض ... من النواوير غضّهْ

يقول أبو الوليد (فلما أنشدته القاضى - أبقاه الله - سرّ سرور متشيع فى غَذِىّ إنعامه ورَبِىّ أيامه ، وأمرنى باستحضار صاحب الشرطة أبى بكر بن القوطية والأديبين أبى جعفر بن الأبار ، وأبى بكر بن نصر وأمِرهم عنه لازال ماضى الأمر بالعمل فى ذلك المعنى على العروض والقافية ، فلم أُقدِّم شيئا على استحضارهم وإيراد ما أمرنى به عليهم ، فصنعوا فى ذلك من ليلتهم أشعاراً رائعة السمات فائقة الصفات » (٣) ومن خلال ذلك ندرك مدى قوة العلاقة بين القاضى ابن عباد وبين

---

(١) انظر نفح الطيب (٤٢٨/٨) .

(٢) انظر من ذلك على سبيل المثال فى كتابه البديع فى وصف الربيع ص ١٠ ، ٤٤ ، ٥٦ ، ٦٢ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٨٦ ، وعلى وجه العموم فقد ذكر فى الكتاب فيما يقرب من سبعة وعشرين موضعا وفى كل موضع يذكر بالثناء العاطر .

(٣) البديع فى وصف الربيع ٤٨ .

أبى الوليد فقد سر القاضى من الأبيات التى أنشدها أبو الوليد بين يديه ، وأمره أن يستحضر أشهر شعراء إشبيلية ممن سبق ذكرهم وأن يطلب منهم على لسانه أن ينظموا أبياتاً على غرار أبياته ولم يقتصر الأمر على ذلك بل نرى له صلة وثيقة بأبى عمرو عباد الذى وهبه بستانا وزاره فيه ، ووصف الياسمين الذى شاهده فى رحابه ، وقد أشار إلى ذلك أبو الوليد فى كتابه البديع حين قال (ومن السحر الحلال المستوفى نهاية الكمال ، قول ذى الوزارتين أبى عمرو عباد – أعزه الله – وقد دخل بستانا لى اكتسبته من نوافل كرمه وسوابغ نعمه ، فرأى ياسمينا فيه فقال بديهة :

كأنما ياسميننـــا الـــغض كواكب فى السماء تبيضٌ (١)

وقد مدح أبو الوليد ذا الوزارتين عباد بأبيات مطلعها :

وروض أريض لم يزل يغتذى بما يروح عليه من سحاب ويغتدى

ومن خلال كتابه البديع يتجلى لنا أيضا أن أباه من قبل كان على صلة وثيقة ببنى عباد حيث كان يحضر مجالسهم ومسامراتهم ، ويطلبون إليه تقييد ما يصدر عن بعضهم من أدب أو شعر على نحو ماحدث فى مجلس القاضى ابن عباد حينما أنشد الوزير الكاتب أبو الأصبغ أبياته التى مطلعها :

يامن تأمّـل روضا به النّواويـر غضه

يقول أبو الوليد « ولما أكمل أبو الأصبغ إنشاد هذا الشعر أمر القاضى – أعزه الله – والدى عبده الناصح له دأبه الحسن فيه ظاهره وغيبه بالجلوس بين يديه ثم أَملّ بديهة عليه :

أبلغ شقيقى عنى مقالـــة لتُـــمِضَّهْ (٢)

ولعل علاقة أبيه هذه ببنى عباد هى التى مهدت السبيل لابنه أبى الوليد لكى يكون على علاقة وثيقة بهم إلى جانب نبوغه المبكر فى الأدب والشعر .

---

(١) المصدر السابق ٩٥ .

(٢) المصدر السابق ٥٢ .

ومن خلال كتابه البديع أيضاً نجد أن لأبى الوليد صلات قوية ببعض الوزراء وأشهر الشعراء فى إشبيلية وغيرها ، من مثل أبى بكر بن نصر ، والوزير أبى عامر بن مسلمة ، وأبى بكر بن القوطية صاحب الشرطة والوزير الكاتب أبى الأصبغ ، وأبى جعفر بن الأبار (١) ، وبعض هؤلاء كانوا من المقربين إليه يجالسونه ويخاطبونه بالشعر الذى يمتدحونه به ، على نحو ماصنع الوزير أبو عامر بن مسلمة ، ويبدو ذلك مما ذكره أبو الوليد فى كتابه البديع حين قال (ومن الفائت الفائق والرائع والرائق فى وصفه قطعة خاطبنى بها الوزير أبو عامر بن مسلمة وبعث معها مطيّبا وهى :

ياواحـد الأدبـاء والشعـراء   وابن الكرام السادة النجباء (٢)

ومنهم من كان من خاصته يصاحبهم ويرافقهم فى مجالس الأدب وفى المتنزهات ، كما حدث مع أبى جعفر بن الأبّار الذى يقول عنه أبو الوليد وقد خرجا معاً إلى نزهة فى فصل الربيع « وكان أبو جعفر بن الأبّار فى جملة من صحبنى وخاصة من تبعنى » (٣) ويبدو أن أبا الوليد إلى جانب هذه الصلات كان يحتل مكانة عالية فى المجتمع الإشبيلى حيث تولى الوزارة كما يفهم من أكثر المصادر التى بين أيدينا والتى تصفه بالوزير الكاتب فهذا الحميدى مثلاً نراه فى جذوة المقتبس يقول (أبو الوليد الوزير الكاتب بإشبيلية له ولأبيه قدم فى الأدب والرياسة) (٤) وقد استوزره قاضى إشبيلية عباد جد المعتمد « ولم يزل يصغى إلى مقاله ويرضى بفعاله ، وهو ماجاوز العشرين إذ ذاك » (٥) .

ونص صاحب رايات المبرزين على أنه وزير للقاضى أبى القاسم عباد (٦) .

---

(١) انظر المصدر السابق ٣٢ ، ٩٠ ، ٤٨ ، ٥٢ ، ٧١ ، ٩٥ .

(٢) المصدر السابق ٩١ .

(٣) المصدر السابق ٧١ .

(٤) انظر جذوة المقتبس رقم ٢٩٥ ، وبغية الملتمس ٢١٣ ، ونفح الطيب (٤٢٧/٨) ورايات المبرزين ٣٩ .

(٥) نفح الطيب (٤٢٨/٨) .

(٦) رايات المبرزين ٣٩ .

٣ - مكانته العلمية والأدبية :

عرفنا فيما سبق أن أبا الوليد نشأ فى بيت فضل وعلم وجاه ورياسة ، ووقفنا فى الحديث عن عصره على ماكانت تعج به إشبيلية موطنه من العلماء والأدباء والشعراء فى مختلف الفنون والعلوم مما جعلها مصدر إشعاع حضارى وعلمى وأدبى ، وكان لذلك كله أثره على أبى الوليد الذى نبغ فى وقت مبكر « فكان وهو ابن سبع عشرة سنة ينظم النظم الفائق ، وينثر النثر الرائق » كما يقول المقرى فى نفح الطيب (١) وقد أدرك منه ذلك الأديب الشاعر أبو جعفر بن الأبّار فاحتضنه ورعاه رعاية أدبية « وهو الذى أقام قناته ، وصقل - زعموا - مرآته فأطلعه شهابا ثاقبا » (٢) واستطاع أبو الوليد أن يحتل مكانة علمية وأدبية مرموقة بين العلماء والأدباء فى الأندلس مما جعلهم يشيدون به ويصفونه بأوصاف تجعله فى الذروة من العلم والأدب والذكاء والجودة فى الشعر والنثر ، فهذا أبو عبد الله بن الأبار يقول عنه (كان آية فى الذكاء والفهم والبلاغة وتجويد الشعر على حداثة سنه) (٣) ويقول عنه ابن بسام (كان سديد سهم المقال بعيد شأو الرواية والارتجال ، والأديب أبو جعفر بن الأبار هو الذى أقام قناته وصقل - زعموا - مرآته ، فأطلعه شهاباً ثاقبا ، وسلك به إلى فنون الآداب طريقاً لاحبا ، ولو تحاماه صرف الدهر ، وامتد به قليلاً طلق العمر ، لسد طريق الصباح ، وغبّر فى وجوه الرياح) (٤) .

وقال عنه الحميدى فى الجذوة (وله ولأبيه قدم فى الأدب والرياسة وله شعر كثير يقوله بفضل أدبه) (٥) .

---

(١) نفح الطيب (٤٢٧/٨) .
(٢) الذخيرة القسم الثانى المجلد الأول ١٢٥ .
(٣) التكملة لكتاب الصلة (١٨٠/١) .
(٤) الذخيرة القسم الثانى المجلد الأول ١٢٤ ، ١٢٥ .
(٥) جذوة المقتبس رقم ٢٩٥ .

٤ - وفاته وآثاره :

نصت أكثر المصادر التى بين أيدينا أن أبا الوليد توفى فى حدود سنة أربعين وأربعمائة وأشار الضبى أنه مات بإشبيلية [١] ويذهب ابن بسام إلى أنه كان ابن اثنتين وعشرين سنة حينما أدركته المنية ، وتبعه فى ذلك ابن الأبار فى التكملة [٢] فى حين أن صاحب كتاب المغرب يرى أن المعتضد بن عباد قتله وهو ابن تسع وعشرين سنة [٣] ويبدو أن هذا الرأى هو الراجح وهو أقرب إلى الصواب ، أما ماذهب إليه ابن بسام فقد استبعده الدكتور صلاح خالص حيث استنتج « أن أبا الوليد قدم كتابه البديع للقاضى ابن عباد وابنه إسماعيل بين عامى ٤٢٦ و ٤٣١ فإذا كان الحميدى وهو معاصر لأبى الوليد يقول إن الشاعر توفى فى حوالى عام ٤٤٠ ، وإذا صدقنا قول ابن بسام بأنه توفى فى الثانية والعشرين من عمره ، فمعنى ذلك أنه حين وفاة إسماعيل فى عام ٤٣١ كان عمره لا يتجاوز الثالثة عشرة ، ومعنى ذلك أيضا أنه ألف كتابه البديع قبل هذا السن ، وهذا مالا يمكن قبوله طبعاً ، وعلى ذلك فإذا قبلنا تاريخ وفاة الشاعر الذى ذكره الحميدى وهو جدير بالقبول ، فإن قول ابن بسام بأنه توفى فى الثانية والعشرين من عمره يبدو غير مقبول » [٤] . وكأنى بالدكتور صلاح الخالص لم يطلع على ماذهب إليه صاحب كتاب المغرب من أن أبا الوليد توفى وهو ابن تسع وعشرين سنة ، وهو قول معقول إذ يصبح عمره حينما ألف كتابه البديع فى حدود عشرين سنة ، ومن هنا ندرك أن الحياة لم تمتد طويلاً بأبى الوليد ، ولعل ذلك يفسر لنا قلة آثاره العلمية والأدبية وربما كان له آثار جليلة وشأن كبير أكثر مما هو عليه لو امتد به الأجل طويلاً ، ولا نعرف من آثاره الآن يرحمه الله سوى كتابه البديع فى فصل الربيع وهو من الآثار الأدبية الجليلة التى حفظت لنا رصيداً كبيراً من الأدب الأندلسى شعره ونثره ، وسيأتى الحديث عن الكتاب بالتفصيل فى موضعه من هذه الدراسة ، وإلى جانب هذا الكتاب نجد لأبى الوليد أشعاراً متناثرة فى بعض المصادر ، ورد كثير منها فى كتابه المشار إليه .

---

(١) بغية الملتمس ٢١٤ وانظر جذوة المقتبس رقم ٢٩٥ ، والتكملة لكتاب الصلة (١٨٠/١) .
(٢) الذخيرة القسم الثانى المجلد الأول ١٢٥ ، وانظر التكملة لكتاب الصلة (١٨٠/١) .
(٣) المغرب فى حلى المغرب (٢٥٠/١) .
(٤) أشبيلية فى القرن الخامس الهجرى دراسة أدبية تاريخية ١٦٧ .

المبحث الثالث
مواهبه الأدبية

أولاً – أبو الوليد الشاعر :

نبغ أبو الوليد نبوغاً أدبيا مبكراً حيث أصبح يقرض الشعر الفائق ويكتب النثر الرائق وهو لم يتجاوز سبع عشرة سنة من عمره كما ذكر المقرى [1] فهو إذاً شاعر وكاتب موهوب منذ نعومة أظفاره ، وقد جرى الشعر على لسانه عذبا رائقا شأنه شأن أبناء بجدته من شعراء إشبيلية الذين درجوا على ثراها الزاهى ، وطبيعتها الفاتنة الخلابة التى انعكست على نفوسهم ، ونقشت فى مخيلتهم روائع القول شعراً ونثرا ولاغرو فقد عاشوا فى ربوعها العامرة بمجالس الأدباء والشعراء فى ظل بنى عباد الذى امتد فكان ظلالاً وارفاً يتفيأه كل محب للأدب والشعر حيث يجد من يرعاه ، ويسمع له مع العطاء الجزيل ، ذلك لأن بنى عباد أنفسهم كانوا مولعين بالأدب والأدباء ، بل نبغ منهم شعراء مجيدون كالمعتضد بن عباد ، والمعتمد بن عباد وفى هذا المحيط أطلت شاعرية أبى الوليد وليدة وفى ريعان صباها ثم راح يغذوها بمجالسة الأدباء والشعراء ، ويصقلها بملازمتهم ، والاطلاع على آثارهم كما عرفنا فى الحديث عن صلاته الأدبية ، ويبدو أن كثيراً من الفضل فى صقل موهبة أبى الوليد الأدبية إنما يعود إلى الأديب الإشبيلى الكبير أبى جعفر بن الأبار فهو الذى أقام قناته ، وصقل مرآته ، فأطلعه شهابا ثاقبا ، وسلك به إلى فنون الآداب طريقا لاحبا حسبما ذكر ابن بسام [2] على أن نبوغه المبكر كان له دور كبير فى تنمية رصيده الشعرى وجودة الكثير منه ، فهذا الحميدى يشير إلى أن له شعراً كثيراً يشهد بفضل أدبه حين قال فى ترجمته (وله شعر كثير يقوله بفضل أدبه) [3] كان له ذلك مع أنه لم يعمر طويلاً حيث توفى –

---

(١) انظر نفح الطيب (٤٢٧/٨) .
(٢) الذخيره القسم الثانى المجلد الأول ١٢٥ .
(٣) جذوة المقتبس رقم ٢٩٥ .

كما عرفنا – وهو ابن تسع وعشرين سنة على أصح الأقوال ، ولا ندرى ماذا سيكون شأنه لو امتد به الأجل ، ويظهر أن جل أدبه من شعر ونثر إنما كان يدور حول الربيع ومافيه من الأزهار واصفاً مايتجلى فى ذلك من مظاهر الجمال التى تتفاعل مع رقة طبعه ، ورهافة حسه على نحو ما يظهر من شعره ونثره الذى بين أيدينا ، ويؤكد ذلك المقرى فى قوله (وأكثر نظمه ونثره فى أزاهر وذلك يدل على رقة نفسه) [1] ولا غرابة فى ذلك فقد كان أبو الوليد مولعاً بمظاهر الطبيعة التى تبدو فى الأندلس وفى موطنه أشبيلية بثوبها الأخضر القشيب المنمنم بروائع الغراس والأشجار ، والموشى ببدائع الزهور من آس ، وإقحوان وبنفسج ، وجلنار ، وخيرى ، وريحان ، وسوسن ، وعرار ، ونرجس ، ونسرين ، ونيلوفر ، وورد ، وياسمين ، وغير ذلك مما تزخر به حدائق أشبيلية وبساتينها ومنتزهاتها التى كان أبو الوليد يهوى التنزه فى أفيائها ، ويمتلك بعضها كما أشار هو نفسه فى كتابه البديع أكثر من مرة حين قال (وخرجت متنزهاً فى زمن الربيع إلى بعض ضياعى) [2] وقال (دخلت بستانا لى مع الفقيه أبى الحسن ابن على وكان بها باقلاء قد نوّر) [3] وأشار إلى بستان له اكتسبه من أبى عمرو عباد وفيه ياسمين ، وإلى التنزه مع الأديب المشهور أبى جعفر بن الأبّار [4] وحسبنا من ذلك كله أنه ألف كتابه البديع فى فصل الربيع . ولم ينفرد أبو الوليد بهذا الولع والتعلق بمظاهر الطبيعة ، والرغبة فى الخروج إلى المنتزهات والحقول والبساتين ، بل هو يجرى فى ذلك على الانطباع السائد لدى الأندلسيين بعامة والشعراء بخاصة من أترابه الذين يتعشقون مظاهر الطبيعة ، ويهيمون بحبها وتشدهم إليها شداً بمناظرها الخلابة ، ولا سيما زهورها وورودها الفاتنة التى أصبحوا من فرط معايشتهم لها يتفاعلون معها ، ويبثونها أشواقهم وأحاسيسهم ، ويستنطقونها بما يعتمل فى نفوسهم من أفكار ومعانى

---

(١) نفح الطيب (٤٢٩/٨) .

(٢) البديع فى فصل الربيع ٣٤ .

(٣) المصدر السابق ١٥٨ .

(٤) المصدر السابق ٩٤ ، ٧١ .

إلى درجة أننا لا نكاد نقرأ شعراً أندلسيا إلا ونجد انعكاسات ذلك واضحة فى أكثر أغراضه من وصف ومدح ورثاء وغيرها ، ويتضح لنا شىء من ذلك فيما بقى لنا من شعر أبى الوليد إذ من المؤسف أننا لم نقف من شعره إلا على النزر اليسير الذى لا نستطيع معه أن نكون صورة متكاملة المعالم لشعره ، ونحاول هنا أن نتلمس أبرز الملامح والقسمات التى تبدو لنا من خلال ماهو موجود من شعره على النحو التالى :-

١ - شعر البديهة :

إن نبوغ أبى الوليد المبكر فى قرض الشعر جعل له موهبة شعرية سيالة تتدفق بكل يسر وعفوية وسهولة على السجية دون عناء أو تكلف ، وأصبح من اليسير عليه أن يقول الشعر على البديهة كلما خالط شغاف نفسه مايدعو إلى بث مكنونها فها هو ذا يدخل بستانا له مع الفقيه أبى الحسن بن على ، وكان بها باقلاء قد نوّر فأخذ من نوره وصنع مصرعا هو (سبج فى كأس ورد) ثم سأل أبا الوليد إجازته فأجابه بقوله (أوكسوف وسط بدر) وزاد عليه بيتا هو :

أو غوال فى لآلٍ أو غشاء بين فجر (١)

ونراه أيضا يكتب لأبيه أربعة أبيات قالها بديهة وهى :

يامن تأزر بالمكارم وارتدى … بالمجد والفضل الرفيع الفائق (٢)
انظر إلى خد الربيع مركّبا … فى وجه هذا المهرجان الرائق
ورد تقدم إذ تأخر واغتدى … فى الحسن والإحسان أول سابق
وافاك مشتملا بثوب حيائه … خجلا لأن حياك آخر لاحق

---

(١) البديع فى وصف الربيع ١٥٨ .

(٢) المصدر السابق ١٣٢ .

وهذه الأبيات على الرغم من أنها جاءت على البديهة إلا أننا نلاحظ فيها تفاعلا ملموسا مع مظاهر الربيع أصبح معه الورد يشتمل بثوب الحياء ، وقد احمر خجلاً من تأخره فى تقديم التحية لأبى الشاعر الذى عناه بالأبيات .

٢ - التصوير والتشخيص :

يميل أبو الوليد إلى التشخيص والتصوير فى إبراز المعانى والأفكار عن طريق الصور البيانية ويتجلى ذلك فى وصفه بعض مظاهر الربيع بقوله :

بكت السماء فأضحكت سن الثرى ... بمدامع نظمت عليه جوهرا [(١)]
فكأنها خرقاء تنثر عقدها ... وكأنه مستغنم أن يُنثرا

فالسماء هنا وهى تمطر تتمثل لنا شخصا يبكى وتنهمر عيناه بالدموع التى تتلقاها الأرض حبيبات من الجوهر نظمت منه عقداً بديعاً استبشرت به وافتر ثغرها ضاحكا لما غنمته من السماء التى نثرت عقدها دون تعقل كمن يتصرف بحمق وجهل .

ويلاحظ أن إبراز هذه الصورة جاء عن طريق الاستعارة فى بكاء السماء ، وضحك الثرى ، وعن طريق التشبيه للسماء بالخرقاء ، والثرى بالمستغنم ، ويبدو أن هذا الميل هو الغالب على شعر وصف الطبيعة ومافيها من زهور لدى أبى الوليد وغيره من شعراء الأندلس بعامة ، وشعراء إشبيلية بخاصة إذ نلمس لديهم العناية بالاستعارات والتشبيهات والمجازات ، وأغلب هذه الصور البيانية التى تقصد لذاتها إنما تمثل ظاهرة شكلية لا تحمل فى طياتها ظلالاً شعورياً يفصح عما يعتمل فى وجدان الشاعر ، وتجيش به مشاعره ، ومثل هذا اللون الذى يفقد الإيحاء الشعورى يظل لونا باهتا ، ومجرد علاقات شكلية جامدة .

---

(١) المصدر السابق ٣١ .

٣ – التشبيه بالذهب والفضة والأحجار الكريمة :

يشيع لدى أبى الوليد التشبيه بالذهب والفضة والأحجار الكريمة فى معرض وصفه للأزهار ، من مثل الفيروزج والياقوت فى قوله يصف نور الكتان :

كأن نور الكتان حين بدا   وقد جلا حسنه صدا الأنفس (١)
أكف فيروزج معاصمها   قد سترتهن خضرة الملبس
أو لافزرق الياقوت قد وضعت   على بساط تروق من سندس

وكقوله فى وصف البهار مشبها بالتبر والفضة :

كأنه جيد تبر   يلوح فى طَوْق فضه (٢)

وقوله أيضا فى وصف السوسن مشبها باللجين :

كأنما حَلْقُه الفذ خسّةٌ من لجين (٣)

ونجد من ذلك قوله فى وصف النرجس مشبها بالتبر والزبرجد :

ترى كل نور منه فوق قضيبه   كَلِمّة تبر فوق جيد زبرجد (٤)

ولم ينفرد أبو الوليد بهذا المنحى الذى كان شائعا فى وصف الأزهار لدى معظم الشعراء الأندلسيين الذين يستأثرون فى شعرهم بالمحسنات البيانية ، ويصلون فيها إلى مدى بعيد يبلغ حد الإغراق المستهجن الذى لا يستساغ .

٤ – استخدام الألوان فى التشبيه :

استخدام أبو الوليد الألوان فى التشبيه استخداماً بديعا يبرز الصورة بشكلها البديع وألوانها الزاهية على نحو ما نجده فى تشبيهه لتلوّن نَوْر الحزم بقوس قزح ذى الألوان المتعددة الرائعة حين قال :

---

(١) المصدر السابق ١٦٠ .
(٢) المصدر السابق ٤٧ .
(٣) المصدر السابق ١٤١ .
(٤) المصدر السابق ١٢٤ .

وخرم حلو الحلى يدو لعينى من لمح[1]
تلونا ومنظرا كأنه قوس قزح

ويرسم صورة أخرى للون دقيق لا يكاد يحس ، وإنما يستشف من حال المستهام المسهد الذى تعروه الصفرة من فرط ما بلغ به الهيام والسهد ، وذلك حينما استعمل هذه الحال فى تشبيه النرجس الأصفر فى قوله :

بدا النرجس المصفر فيه مباهيا بلون كلون المستهام المسهّد[2]

٥ - الألفاظ :

يجنح أبو الوليد إلى استعمال الألفاظ السهلة البعيدة عن الغرابة ذات الجرس الموسيقى المتناغم مع السياق ، وألفاظه غالباً ماتكون وثيقة الصلة بالطبيعة وما ينبثق عنها من مظاهر جميلة تتجلى فى زهورها وورودها مما يجعل هذه الألفاظ تحمل إيحاءات جميلة معبرة عما ينبثق من الواقع من مثل : الندى ، والمسك ، والنسيم ، والشذا ، والسنا ، والروض ، والنفحة ، والسحاب ، والسماء ، والنهر . ونحوها وينجلى ذلك فى قوله يضف الورد ذكراً (المسك ، والشذا ، والنفحة ، والسنا) :

نفحة المسك من شذا نفحاته خَجَلُ الخد من سنا خجلاته[3]

وقوله فى الأقحوان ذاكراً (الندى) :

أقحوان أنيق بروده مبيضه[4]
قد طرزتها بتبر عين الندى المرفضه

وقوله فى وصف النرجس ذاكراً (الروض ، والسحاب ، والنسيم) :

وروض أريض لم يزل يغتذى بما يروح عليه من سحاب ويغتدى[5]

---

(١) البديع ١٤٣ .
(٢) المصدر السابق ١٢٣ .
(٣) المصدر السابق ١٣٢ .
(٤) المصدر السابق ٤٧ .
(٥) المصدر السابق ١٢٤ .

إذا ماسرى منـه نسيم لوالـه سرى عنه جلباب الجوى المتوقد

وفى هذين البيتين نحس بشيء من التناغم الموسيقى الداخلى النابع من الألفاظ المتكررة ذات الإيقاع والجرس المتقارب أو المتحد كما يبدو فى كلمتى (روض أريض) وفى تكرار كلمة (سرى) فى المصرعين ، ونجد مثل ذلك فيما يبدو من تناغم بين (مستطرف ، ومستظرف) (المسك مسكا) حين قال :

مستطرف فى خلْقه مستظرَف فى خُلْقه مستحسن الإلمام (١)

لم يرض إلا المِسْك مَسْكا جسمه وبه يبوح إليك فى الإظلام

ويبدو هنا استعمال أبى الوليد لبعض ألوان البديع ولا سيما الجناس الذى يتردد كثيراً فيما بقى لنا من شعره كقوله :

أربى عليه نظمك الحلو الحلى فانحط بعـد الرتبـة العليـــاء(٢)

إن كان نور الآس فى ورقاته نوراً بدا فى ليلـة ظلمــــاء

واستعمال المحسنات البديعية كان من الأمور التى تتجلى بوضوح فى الشعر الأندلسى إبان القرن الخامس الذى عاش فيه أبو الوليد ، ومن المعلوم أن الإغراق فيها يخرج بالشعر من طور الموهبة المبدعة الى طور التصنع والصنعة الجوفاء .

٦ - امتزاج المدح بوصف الطبيعة :

يظهر فى شعر أبى الوليد امتزاج المدح بشعر الطبيعة ، ووصف زهورها ، ومجالى الجمال فيها ، وتكاد تشيع هذه الظاهرة فى جل قصائد المديح لدى الشعراء الأندلسيين عامة ، وشعراء أشبيلية فى القرن الخامس بخاصة .

فمن ذلك أننا نرى أبا الوليد يأخذ فى وصف الورد وما له من مكانة عالية ومنظر خلاب ورائحة زكية ، ولون أحمر بديع ممزوج بحمرة من اليواقيت والدر ،

---

(١) المصدر السابق ٨٨ .

(٢) المصدر السابق ٩١ .

ثم يخلص من ذلك إلى مدح أبيه مشيداً بسماحته وبأسه وأخلاقه ووفائه رابطاً ذلك بما سبق أن قاله من إشادة فى وصفه للورد ، ويتجلى ذلك فى قوله من قطعة فى وصف الورد موصولة بمدح أبيه :

إنما الورد فى ذرى شجراته … كأجل الملوك فى هيئاته (١)
رائق منظراً وخبراً وفذ … فى حلاه التى حلت وصفاته
نفحة المسك من شذا نفحاته … خجلُ الخد من سنا خجلاته
مزجت حمرة اليواقيت بالد … ر فجاءت به على حَسْب ذاته
مثلما جاء من سماح وبأس … خلق الحميرى سم عداته
إن يعد فالوفاء حتم عليه … فَرْضه فى صِلَاته كصلاته

ونمضى مع أبى الوليد وهو يصف النرجس فى ذلك الروض الزاكى الذى يخلب الأنظار بجماله وعليه السحاب الهتان يروح ويغدو ، وفيه النرجس الأصفر بلونه البديع ، ونوره التبرى على غصنه الزبرجدى ومنه يسرى النسيم العليل الذى يسرى عن النفس ماحل بها من الجوى ، ثم نراه بعد ذلك ينتقل الى مدح ذى الوزارتين عباد إذ أن هذه الصفات التى أضفاها على الروض الزاهى ، ونرجسه البديع إنما تحكى فى منظرها ومخبرها خلائق أبى عمرو يقول من قطعة له فى وصف النرجس موصولة بمدح ذى الوزارتين عباد :

وروض أريض لم يزل يغتذى بما … يروح عليه من سحاب ويغْتدى (٢)
بدا النرجس المصفر فيه مباهيا … بلون كلون المستهام المسهد
ترى كل نور منه فوق قضيبه … كلِمَّة تبر فوق جيد زبرجد
إذا ماسرى منه نسيم لواله … سرى عنه جلباب الجوى المتوقد
حكى منظراً نصراً وخبراً خلائـــــق النجيب أبى عمرو سليل محمد
فداه عداه كم له من فضيلة … وفضل ندى يغنى به كل مجتدىَ

---

(١) البديع ١٣٢ .

(٢) المصدر السابق ١٢٣ .

– وله أبيات على هذا النحو أيضا فى وصف السوسن موصولة بمدح الحاجب ومطلعها :

وســوســن يتــهـادى للأنس بالراحــتين [1]

٧ – المعارضات :

لأبى الوليد مقطوعات عارض بها بعض الشعراء ممن أعجب بشعرهم واستحسنه ، فمن ذلك أن الفقيه أبا الحسن بن على كان قد قال قصيدة ضادية يصف فيها نواوير الربيع بوصف حسن بديع ، ويمدح بها ذا الوزارتين القاضى ومطلعها

كأنما الـــــروض لما وشت يد المزن أرضه [2]

فلما بلغت هذه القصيدة أبا الوليد تحركت قريحته فصنع على غرارها أبياتا مطلعها :

انظر إلى النهر واعجب لحسن مرآه وارضه [3]

وكان لهذه الأبيات وقع حسن فى نفس القاضى ابن عباد مما جعله يطلب النسج على منوالها من بعض شعراء إشبيلية يقول أبو الوليد : « فلما أنشدته القاضى – أبقاه الله – سر سرور متشيع فى غذِىّ إنعامه وربى أيامه ، وأمرنى باستحضار صاحب الشرطة أبى بكر بن القوطية والأديبين أبى جعفر بن الأبار ، وأبى بكر بن نصر أمرهم عنه لازال ماضى الأمر بالعمل فى ذلك المعنى على العروض والقافية ، فلم أقدّم شيئا على استحضارهم وإيراد ما أمرنى به عليهم ، فصنعوا فى ذلك ليلتهم أشعاراً رائعة السمات فائقة الصفات » [4] .

---

(١) المصدر السابق ١٤١ .
(٢) المصدر السابق ٤٧ .
(٣) المصدر السابق ٤٧ .
(٤) المصدر السابق ٤٨ .

وله من هذا القبيل أبيات أجاب فيها على أبى عامر بن مسلمة فى أبياته التى مطلعها :

يا واحد الأدباء والشعراء وابن الكرام السادة النجباء [1]

وذلك فى أبيات لأبى الوليد مطلعها :

يامن حبوت بوده حوباء وهى الفداء له من الأسواء

ولا شك أن المعارضات من الفنون الأدبية التى تبرز مقدرة الشاعر على التجاوب مع غيره من الشعراء ، ومجاراتهم فيما قالوه من شعر جيد بديع يلامس المشاعر ، ويثير كوامن النفس ، ويدفع بها لتأمله والتفاعل معه ، ومن ثم محاكاته والنسج على منواله غرضاً وروياً ووزنا وقافية ، وهو مادرج الأدباء على تسميته بالمعارضة ، وقد شاع هذا اللون كثيراً فى العصر العباسى ، وصار ظاهرة بارزة لدى بعض الأمصار الإسلامية وعلى وجه الخصوص فى بلاد الأندلس والمغرب إذ كان التنافس بين الشعراء فى هذا المضمار على أشده سواء كان ذلك بين الشعراء الأندلسيين أنفسهم ، أو بينهم وبين بعض شعراء المشرق ، وكتب الأدب تزخر بشىء كثير من ذلك [2] ولم يجر الشعراء على نسق واحد فى التفاعل مع هذا اللون من الشعر إذ منهم من تفاعل معه تفاعلاً فنيا لحمته وسداه الإعجاب بالشعر الذى يتطلع إلى معارضته ، فيجنى ثماراً يانعة من الشعر الجاد الذى ترتسم عليه سمات الإبداع والجودة ، وربما تفوق بعضهم على مايعارضه من الشعر إتقانا وإبداعا ، ومنهم من كان يهدف من وراء المعارضة إلى مجرد المجاراة إظهاراً للمقدرة أو بدافع التحدى ، وغالباً مايتسم شعر هؤلاء بالضعف أكثر من اتسامه بالإبداع ، ونحن لم نلمس فى معارضات أبى الوليد مايصل بها إلى هذا الحد أو يرقى بها إلى الحد الأول فهى إذاً وسط بين الحدين .

---

(١) المصدر السابق ٩١ .

(٢) انظر على سبيل المثال الذخيرة القسم الثالث المجلد الأول ١٢٢ ، ٣٣٠ ، ٣٤٤ ، ٣٤٦ ، ٥٠٨ ، ٥١٢ ، والقسم الثالث المجلد الثانى ٥٨٨ ، ٦٨٤ ، ٦٨٨ ، ٦٩٠ ، ٦٩٧ ، ٧٧١ ، ٩٠١ .

٨ - المفاضلات والمحاورات بين الأزهار :

جرى أبو الوليد على ماجرى عليه غيره من الشعراء الأندلسيين الذين راحوا يعقدون مناظرات ومحاورات شعرية يفاضلون فيها بين الأزهار ، وقد حفظ لنا أبو الوليد شيئا منها فى كتابه البديع [1] ، وكان له من ذلك نصيب لما كثر الكلام فى تفضيل الخيرى الأصفر إذ كتب أبياتا فيها بعض الرد على من فضله وبخس النمام أكثر حقه ، ولم يرع حسن خَلْقه وخُلقه ومنها قوله :

يامن يذم خلائق النمام ويحطه عن خُطّة الإكرام [2]
قدك اتئد عن لومه جهلاً به فجماله زار على اللوام
هو أشهر الخيرى حسنا فاحبه من بينه بتحية وسلام

ويذهب بعض الباحثين إلى « أن مثل هذه المناظرات والمفاضلات كانت سبيلاً لامتحان مقدرتهم الجدلية يرضون بها ميلاً عقليا نحو الجدل ، فاتخذوا من الطبيعة موضوعاً له بدلاً من أن يكون حول شئون العقيدة إذ كانت المناظرات فى أمورها مظنة خطر » [3] .

٩ - السرقة :

لأبى الوليد بعض الأبيات استقى معناها من بعض الشعراء مما يعد سرقة فى تقدير طائفة من الأدباء والنقاد ، فمن ذلك قوله :

لو كانت الشمس المنيرة سرمداً لم تُلْق بالإجلال والإعظام [4]

---

(١) انظر ص ٥٧ ، ٧٣ .
(٢) البديع ٨٨ .
(٣) تاريخ الأدب الأندلسى عصر الطوائف ١٩٥ .
(٤) البديع ٨٨ .

أخذه من البيت الذى ينسب إلى الشافعى وهو قوله :

والشمس لو مكثت فى الفلك دائمة   لملها الناس من عجم ومن عرب (١)

ولم يقتصر الأمر على هذا البيت بل هناك بيت آخر لأبى الوليد لا يخلو من مظنة السرقة وهو قوله :

أضميتَه من بعد ما أرويته   بمدامة فيها دواء الداء (٢)

أخذه من قول أبى نواس المشهور :

دع عنك لومى فأن اللوم إغراء   وداونى بالتى كانت هى الداء (٣)

١٠ - شعر الغزل :

لأبى الوليد شعر فى الغزل أورد لنا ابن بسام بعض قطافه ومنها قوله :

حمام بلحظك قد حمّ لى   فما زال يهدى الى مقتلى(٤)
وإن لم تغثنى بمعنى الحياة   فمن ريق مبسمك السلسل
فها أنا قاض بداء الهوى   وقاضى جمالك لم يعدل
فياليت قبرى حيث الهوى   فأكرم بذلك من منزل
فإن جاد بالوصل بعد الوفاة   رجعت إلى عشى الأول
إذا ما أدرت كؤوس الهوى   ففى شربها لست بالمؤتلى
مدام تُعَتَّقُ بالناظرين   وتلك تعتق بالأرجل

وقد أعجب ابن بسام بالبيت الأخير من هذه الأبيات ، وفضله على بيتين للمتنبى ذكرهما للمقارنة بينه وبينهما ، وعبر عن إعجابه بقوله (وهذا البيت مما أغرب به على الألباب ، وأعرب فيه عن موضعه من الصواب ، وبينه وبين قول أبى الطيب

---

(١) ديوان الشافعى ٣٦ .
(٢) البديع ٩١ .
(٣) ديوان أبى نواس (١/ ٢١) .
(٤) الذخيرة القسم الثانى المجلد الأول ١٣٤ ، ١٣٥ .

شبه بعيد ، ولكن لأبى الوليد فضل التوليد ، وحُسنٌ من النقل ليس عليه مزيد ، وهو قوله :

انظر إذا اختلف السيفان فى رهج ... إلى اختلافهما فى الخلق والعمل
هذا أُعِدّ لريب الدهر منصلتا ... وعدّ ذاك لرأس الفارس البطل (١)

على أن هذه الأبيات تعنى أن أبا الوليد لم يقتصر من الأغراض على وصف الطبيعة وأزهارها وما خالط ذلك من المدح بل إن له مشاركات فى أغراض أخرى منها الغزل ، وهو وإن لم يخرج به عن المألوف لدى شعراء الغزل إلا أننا نلمس فيه التعبير التقليدى عن لواعج الحب وكوامن الشوق والهوى ، ومن يدرى فقد تكون له أغراض أخرى لم يصل إلينا عنها شيء .

١١ - الموسيقى والأوزان :

لون أبو الوليد فى موسيقى الشعر وأوزانه ونظم فى أكثر البحور كالمتقارب ، والرمل والرجز والكامل والخفيف والطويل والمنسرح والمجتث ، ويبدو أنه يميل إلى الأوزان الخفيفة ذات الجرس الموسيقى الناعم المتناغم كما هو ملموس فى بحر الكامل الذى نظم منه أربع مقطوعات من شعره الذى أودعه كتابه البديع (٢) بينما نجد له من البحور الأخرى على مقطوعة أو مقطوعتين .

---

(١) المصدر السابق القسم الثانى المجلد الأول ١٣٤ .

(٢) انظر ٣٠ ، ٨٨ ، ٩١ ، ١٣٢ .

ثانيا – أبو الوليد الناثر

أ – تمهيد وعرض :

حظيت الأندلس فى القرن الخامس بحركة أدبية واسعة المدى شملت جميع مناحى القول شعراً ونثراً حيث برز فى الأفق شعراء لامعون يجرى الشعر على ألسنتهم عذبا رائقا ، من أمثال ابن زيدون ، والمعتمد بن عباد ، وابن حمديس ، وابن خفاجة ، وابن شهيد ، وابن دراج القسطلى وغيرهم من شعراء إشبيلية أمثال أبى جعفر بن الأبار ، وابن القوطية ، وأبى الوليد الحميرى وسواهم ، وإلى جانب هؤلاء الشعراء – وكان بعضهم من الكتاب – لمع كتاب تسيل شباة أقلامهم بروائع النثر فى موضوعاته المتنوعة من رسائل دينية تبرز القيم الإسلامية ، وتعكس المعانى الجميلة للعقيدة الإسلامية ، وتصور الأحداث العامة ، وتستنهض الهمم لمواجهة أعداء الدين والوطن ، إلى رسائل اجتماعية تحكى واقع المجتمع الأندلسى فى شتى ظروفه وأحواله جداً وهزلاً ، وفرحاً وحزنا ، وشكوى من المصائب ، وحثا على الجد والعمل ، أو ركونا إلى اللهو والمجون ، أو رسائل إخوانية يتم تداولها بين الإخوان والأحبة من رفاق العلم والأدب وغيرهم مشتملة على شىء من المدح أو القدح ، أو العتاب والاعتذار ، أو التهانى أو التعازى ، أو طلب الشفاعة ، أو رسائل ديوانية تتعلق بشؤون الحكم والحكام والدولة والمواطنين ، وهناك رسائل وصفية تبرز الجانب المشرق للطبيعة وماتحتوى عليه من مظاهر الجمال والبهجة فى زهورها ، وحدائقها ، وبساتينها ، ومناظرها الفاتنة ، وقد جالت فى هذه الفترة ، وفى هذه الموضوعات أقلام الكتاب الأندلسيين من مثل ابن شهيد ، وابن حزم ، وأبى حفص بن برد ، وابن الحناط الكفيف ، وأبى المغيرة بن حزم ، بل إن بعضهم كان له فضل السبق والابتكار فى الكتابة بانتهاج الأسلوب القصصى كما صنع ابن شهيد الذى يعد فارس هذه الحلبة ورائداً من رواد النثر القصصى فى الأندلس بما سطره فى رسالته المشهورة والمعروفة باسم التوابع والزوابع التى لم تصل إلينا كاملة ، وهى كما يقول الدكتور أحمد عبد المقصود هيكل « قصة خيالية يحكى فيها ابن شهيد رحلة له فى عالم الجن قد اتصل خلالها بشياطين الشعراء وناقشهم وناقشوه ، وأنشدهم وأنشدوه ، وعرض أثناء ذلك بعض آرائه فى الأدب واللغة وكثيراً من نماذج شعره ونثره ، كما نقد خصومه ، ودافع عن فنه ، وانتزع من

ملهمى الشعراء والكتاب الأقدمين شهادات بتفوقه وعلو كعبه فى الأدب كل هذا مع بث الفكاهات ونثر الطرائف وإيراد الدعابة » [١] .

ومن الظواهر البارزة فى النثر الأندلسى خلال القرن الخامس أننا رأينا النثر الفنى والطابع الأدبى يتخطى الموضوعات التى أشرنا إليها سابقا إلى المؤلفات العلمية والفكرية والعقلية التى وصل إلينا بعضها حاملاً الشىء الكثير من خصائص النثر الفنى ، ويبدو ذلك جليا فى مؤلفات كل من شيخ المؤرخين ابن حيان ، وأبى الوليد إسماعيل بن محمد بن حبيب فى كتابه البديع ، وابن حزم فى طوق الحمامة ، والفتح ابن خاقان فى قلائد العقيان ومطمح الأنفس ، وابن بسام فى الذخيرة ، وعلى الرغم من تعدد موضوعات الكتابة فى الأندلس إبان القرن الخامس إلا أننا نجد أن الكتابة الوصفية التى تعنى بوصف مظاهر الطبيعة هى التى تشكل ظاهرة بارزة ، ولعل مرد ذلك يعود إلى طبيعة بلاد الأندلس الفاتنة الخلابة التى افتن الشعراء والأدباء فى وصفها وأسهب المؤلفون فى الحديث عنها ، ومنهم المقرى فى نفح الطيب [٢] الذى تحدث طويلاً عن محاسن أرض الأندلس ، وجمال طبيعتها ، وقد كان لذلك أثر واضح فى الأدب حيث تعلق الأدباء بتلك الطبيعة الغناء تعلقا شديداً يظهر جليا فى تفاعلهم مع مباهجها ومفاتنها التى راحوا يرسمون لها صوراً بديعة بشتى مناحى القول شعراً ونثراً واصفين رياضها وزهورها ، ومباهج جناتها التى وهبتهم من جمال مجاليها جمال التصوير والتعبير ، ومن رقة هوائها ، وسحر نسيمها رقة الألفاظ والمشاعر والأحاسيس ، ومن هذا المنطلق افتن الكتاب فى وصف الطبيعة ، وبرعوا فى ذلك براعة فائقة ولا سيما فيما انتهجوه من أسلوب المناظرات والمحاورات والمراسلات على لسان الأزهار كما صنع أبو حفص أحمد بن برد ، وفى هذا الوسط وتلك الأجواء نبغ أبو الوليد الكاتب الذى تفتحت مواهبه للشعر والكتابة منذ وقت مبكر وهو ابن سبع عشرة سنة ، وسالت شباة قلمه بروائع من النثر الذى لم يصل إلينا منه إلا ما يتجلى فى كتابه البديع ، أو فى المصادر التى نقلت عنه ، ومن خلال اطلاعنا على كتاب البديع يتضح أن النثر الذى يخص أبا الوليد منه إنما يظهر فى مقدمة الكتاب ،

---

(١) الأدب الأندلسى من الفتح إلى سقوط الخلافة ٤٠٤ ، ٤٠٥ .

(٢) انظر نفح الطيب (١/١٢٥ - ٢٢٨) .

وبعض التعقيبات ، والتعليقات التى تتناثر فى ثنايا الكتاب إلى جانب بعض المقطوعات والرسائل النثرية فى وصف بعض النواوير ، وهى فى مجموعها تتجه إلى الكتابه الوصفية ، ولعل من أبرزها رسالته البديعة فى الرد على رسالة أبى حفص بن برد والتى جاءت بأسلوب قصصى عن طريق المناظرة ، والمحاورة والمراسلة بين الأزهار والنواوير ، أما موضوعات الكتابة الأخرى فلم نظفر له منها بشيء ذى بال وهذا يعنى أن حديثنا هنا سيقتصر على الكتابه الوصفية ، وأول مايصادفنا مقدمة كتابه البديع التى أفصح فيها عن مباهج الربيع ومفاتنه بقوله (وفصل الربيع آرج وأبهج ، وآنس وأنفس ، وأبدع وأرفع من أحد حسن ذاته ، وأعد بديع صفاته) [(١)] ، وكتب إلى أبيه رسالة يسأله فيها الخروج للتنزه فى الربيع ، ويصف بعض مظاهره منها قوله (لما خُلِق الربيع من أخلاقك الغر ، وسُرق زهره من شيمك الزهر حسن لكل عين منظره ، وطاب فى كل سمع خبره ، وتاقت النفوس إلى الراحة فيه ، ومالت إلى الإشراف على بعض ما تحتويه من النوار الذى كسا الأرض حُللاً ، ولا يرى الناظر فى أثنائها خللاً ، فكأنها نجوم نثرت على الثرى ، وقد ملئت مسكاً وعنبراً ، إن تنسّمتها فأرجه ، أو توسمتها فبهجة ، تروق العيون أجناسها وتحيى النفوس أنفاسها) [(٢)] .

وخرج مرة متنزهاً إلى بعض ضياعه فى زمن الربيع فاستهواه جمال المنظر والمشهد بما فيه من زهور بديعة حركت مشاعره وأحاسيسه ، فعبر عن ذلك برسالة بعث بها إلى أبى الوليد بن العثمانى قائلا : (قد علم سيدى أن بمرآه يكمل جذلى ، ويدنو أملى ، وقد حللت محلاً عنى الجو بتحسينه ، وانفرد الربيع لتحصينه ، فكساه حللاً من الأنوار بها ينجلى صدأ البصائر والأبصار ، فمن مكموم يعبق مِسْكه ، ولا يمنعه مَسْكه ، ومن باد يروق مجتلاه ، ويفوق مجتناه فى مرآه ورياه) [(٣)] .

---

(١) البديع ٣ .

(٢) المصدر السابق ٣٣ .

(٣) المصدر السابق ٣٤ .

وتستمر المكاتبة بينه وبين ابن العثمانى فى هذا الصدد حيث بعث ابن العثمانى بخيرى مبكر ومعه رسالة إلى أبى الوليد ، فأجابه بمثلها مشيداً بمحاسن الخيرى فقال (فلما تعاهدت خيريك عهاد شيمك ، ودامت عليه ديم كرمك بكر مُتَنَعِّما منها مَتَنفِّساً عنها ولاندّ له إلا الند ، ولا مَسْك له إلا المِسْك ، وقد قبَضه مشغوفا به) [١] .

أما رسالته التى رد فيها على أبى حفص أحمد بن برد ، وسلك فيها نهجه فقد برع فيها أبو الوليد براعة فائقة حيث أجرى فيها الحديث والحوار والمناظرة ، والمراسلات على ألسنة الأزهار ، وإذا استعرضناها نحس للوهلة الأولى أننا فى مجلس يضم بعض النواوير ، وطائفة من الأزهار هم البنفسج والخيرى والنمام والبهار كانوا قد اجتمعوا فيما بينهم ، وتداولوا الأمر بينهم ، ونظروا فى حالهم ، وقاسوا أنفسهم بالورد فلم يجدوا بداً من الاتفاق على تقديمه وتفضيله عليهم ، ولم يقف بهم الأمر عند هذا الحد بل عملوا على إشاعة رأيهم بين بقية الأزهار بالكتابة إليهم يأمرونهم بالتأييد لما انتهوا إليه (وكانت النواوير المتفقة عليه ، والداعية حينئذ إليه البنفسج والخيرى والنمام والبهار ، وكتبتْ كتابا إلى صنوف الأنوار ، وضروب الأزهار تأمرها بالوقوف عندما وقفت ، والاتفاق على ما اتفقت) [٢] .

غير أن هذا الكتاب لم يلق القبول لدى جميع الأزهار ، فأول من اطلع عليه ، وانبرت له نواوير الربيع ، وأعلنت التمرد على ماجاء فيه من مبالغة ومغالطة فى الحقائق ، وأفصحت عن ذلك بالكتابة إلى الأقحوان ، والخيرى الأصفر بحكم الجوار فى الوطن والاتفاق فى الزمن ، فقالت لهما : (من نواوير فصل الربيع الأزهر إلى الأقحوان والخيرى الأصفر ، بسم الله الرحمن الرحيم . وصلت إلينا بيعة اشترى بها من سعى فيها ، وفغر عن فيها خسران الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين ،

---

(١) المصدر السابق ١١٧ .

(٢) المصدر السابق ٦٣ .

ولو استحق الورد إمامة ، أو استوجب خلافة لبادر بها آباؤنا ، ولعقدها أوائلنا التى لم تزل تجاوره فى مكانه ، وتجىء معه فى أوانه) [1] .

ثم بأى حجة أو وجه من وجوه التقديم والفضل استحق الورد أن يتربع على قمة المجد بين النواوير الأخرى ، وهناك من هو أحق منه بذلك ، وهو نور البهار الذى تغنى به الشعراء ، وشبهوه بالعيون وهى أشرف الحواس ، وأين منه الورد الذى يشبه بالخد وهو ليس بحاسة ، فنور البهار هو « البادى فضله بدوّ النهار ، والذى لم يزل عند علماء الشعراء ، وحكماء البلغاء مشبهاً بالعيون التى لا يحول نظرها ، ولا يحور حورها ، وأفضل تشبيه للورد الخد عند من تشيع فيه وعنى به ، وأشرف الحواس العين إذ هى على كل مُنَوّل عون ، وليس الخد حاسة فكيف تبلغه رياسة) [2] وقد احتدت الأنوار الربيعية على البهار وأخذت فى تأنيبه على تخاذله أمام الأزهار التى فضلت عليه الورد حيث شاركهم فيما ذهبوا إليه ، ونسى حق نفسه فى الفضل والتقديم ، مما كان سببا فى تقديم الورد وتفضيله (فلولا استجابته لها وكونه معها ماتحصن لتلك مُراد ، ولا تحسن لها مَراد) [3] وبعد هذا التأنيب أخذت نواوير الربيع فى التلطف مع البهار ، وأقسمت أنه لو جمعها وإياه وطن أو زمن لبايعوه ، وقدروه بكل غال لديهم إذ قالوا (وحييناه بالسلام الأثير بعد الملام الكثير ، ووالله العظيم حقه الواسع رزقه لوجاورناه فى وطن ، أو صحبناه فى زمن لبايعناه منذ مدة مبايعة العبيد ، ونفدّيه لفضله علينا بالطريف والتليد) [4] وحينما وصل كتاب نواوير الربيع الذى بعثت به إلى الخيرى الأصفر والأقحوان كان عندهما كل من البنفسج والخيرى النمام والنرجس ، فأخذا فى تأنيب هذه النواوير ، وتسفيه آرائها فى تقديم الورد ، وألحا عليها فى ذلك مما جعلها تتراجع عن موقفها ، وأعلنت ذلك بقولها : (لاتكثرا لومنا ،

(١) البديع ٦٣ .
(٢) المصدر السابق ٦٤ .
(٣) المصدر السابق ٦٥ .
(٤) المصدر السابق ٦٥ .

ولا تطيلا تأنيبنا فلو لم تكن لنا سقطة ، ولا نسبت إلينا غلطة لخرجنا من الأمر المعلوم ، والحد المعروف ، فلابد للكل من تدبير دبرى ، ورأى غير مرضى ، وقد قيل اللبيب من عدت سِقطاته ، والأريب من حُصّلت هفواته) [1] وقد سر الأقحوان والخيرى من هذا الإقرار ، والتراجع الذى أتاح لها أن تنضم مع بقية الأزهار فى الإعتراف بفضل البهار ، والاعتذار له ، وطلب الصفح منه عما بدر منها ، ثم دبج الأقحوان والخيرى الأصفر رسالة إلى أنوار الربيع يفصحان فيها عن موقفهما المؤيد فى فضل البهار ، وتسفيه رأى من قال بخلاف ذلك جاء فيها : (وصل إلينا كتابكم وورد علينا خطابكم تُبينون فيه ضعف مَيْز مقدّمِى الورد ومبايعته ، وسوء رأى مُوَلّيه ومؤمليه ، تلك قصة غابت عنا وبعدت بفضل الله منا ، وقد ظهر ضعفها إلى من تولّى ، وتبيّن سخفها لمن ولّى) [2] وفى نهاية المطاف تم الاتفاق بين النواوير المتجاورة على تفضل البهار ، وتراجع عن موقفه كل من سبق له أن فضل الورد ، وماكان من نواوير الربيع إلا كتبت عقداً بذلك عممته على صنوف الأنوار ، وضروب الأزهار معلنين البيعة للبهار باتفاق الجميع (وإذ قد اجتمع الرأى من سَراتكم ومنّا ، وصدر الاتفاق عن كبرائكم وعنا ، فهى النعمة التى بها تَنْتَظِم أمورنا ، ويراعى أميرنا ، وقد بايعنا البهار الباهر جماله ، الظاهر كماله على ما رضيتم به ، ورغبتم فيه) [3] .

وتوج هذا العقد بشهادة كل من البنفسج ، والنرجس ، والخيرى ، والأقحوان ، والخيرى الأصفر .

ب - خصائص وسمات نثر أبى الوليد :

وبعد هذا العرض يمكننا أن نستجلى مايظهر لنا من الخصائص والسمات لما بين أيدنيا من نثر أبى الوليد ، وذلك على النحو التالى : -

---

(١) المصدر السابق ٦٦ .
(٢) المصدر السابق ٦٧ .
(٣) المصدر السابق ٦٨ .

١ - التضمين :

- درج أبو الوليد فى بعض رسائله على تضمينها بشىء من الشعر ، وقد يكتفى منه ببيت أو بيتين لأحد الشعراء المشهورين تأكيداً لما جاء به من المعانى والأفكار ، على نحو مانراه من استشهاده بقول ابن الرومى :

أين الخدود من العيون رياسة ونفاسة لولا القياس الفاسد (١)

وذلك ليؤكد ماذهب إليه من تفضيل البهار الذى يشبه بالعيون وهى أحد الحواس على الورد الذى يشبه بالخدود وليست من الحواس فى شىء (٢) ، وقد يتجاوز ذلك إلى ثلاثة أبيات فأكثر ، وهذا الشعر المضمن إنما يكون فى الغالب من نظمه ، ويظهر لنا هذا من الرسالة التى بعث بها إليه أبيه يصف فيها بعض مظاهر الربيع ، وما ينجم عنه من أزهار تكسو الأرض بحلل زاهية تروق العيون أجناسها ، وتحيى النفوس أنفاسها ، وتوّج وصفه النثرى بشىء من شعره حين قال فى ثنايا النثر :

فالأرض فى بردة من يانع الزهر تزرى إذا قستها بالوشى والحِبَر
قد أحكمتها أكف المزن واكفة وطرّزتها بما تُهمى من الدرر
تبرجت فسبت منا العيون هوى وفتنة بعد طول الستر والخفر

ويتجلى ذلك بوضوح فى رسالته البديعية التى أجاب فيها على أبى حفص بن برد ، وخالفه فيما ذهب إليه من تفضيل الورد على البهار وغيره من الأزهار ، وأجرى فيها المحاورة والمناظرة والمراسلات على ألسنة الأزهار التى جعلها تقر بالفضل للبهار على الورد وغيره من النواوير ، وتعقد له البيعة ، وشهد على هذا العقد كل من البنفسج والنرجس ، والخيرى النمام ، والأقحوان ، والخيرى الأصفر ، وكل منهم دبج شهادته بالنثر والشعر ، وهنا نجد أبا الوليد يجرى على لسان كل منهم أبياتا من الشعر (٣) يفصح فيها عن تراجعه فى تفضيل الورد ، والاعتراف بفضل البهار فهذا البنفسج يقول :

---

(١) ديوان ابن الرومى (٦٤٤/٢) .
(٢) انظر البديع ٦٤ .
(٣) انظر المصدر السابق ٦٩ .

أما البنفسج فهو يشهد أنه — متذمم مما جنى متنصل
متبرئ من بيعة الورد التى — لم يَبر منها داؤه المتأصل
متين فضل البهار وعالم — أن البهار هو المليك الأفضل

ويقول النرجس :

أشهد النرجس أشهاد محق — أن بَذْر الورد فى الملك مُحِقْ
ورأى أن البهار المجتلى — فى سماء الحسن بالملك أحق
فمتى كُذِّب قول أبدا — قيل فى قولته هذى صدق

ويقول الخيرى النمام :

أشهد الخيرى أن الخير فى — نقض ما أخطأ فيه أولا
موقنا أن البهار المرتضى — بهر الأملاك حالاً وحُلا

ويقول الأقحوان :

أشهدَ الأقحوان أن جناه — كافر بالذى سواه جناه
قائل قولَ من تبرأ قِدْماً — من هوى من قضى عليه هواه
إن نور الربى عبيد وكل — للبهار البهى يقضى ولاه

ويقول الخيرى الأصفر :

أصفر الخيرى يشهد — أن عقْدَ الورد قد رُد
ويرى أن البهار المنتقى — أعلى وأمجد
ملك يقظان يأتى — وصنوف النور هُجّد

وهكذا نرى أن الشعر برز هنا بروزاً ظاهراً فى ثنايا النثر ، على أن مثل هذه الظاهرة التى يعمد فيها الكاتب إلى تضمين أبيات من الشعر فى غضون مايدبجه يراعه من النثر تعد من الظواهر الشائعة والملموسة لدى الكتاب الأندلسيين إظهاراً لما يتمتعون به من مواهب أدبية متعددة للجمع بين النثر والشعر فيما هو من إبداعهم ، وقد بلغت براعة بعضهم إلى حد لا تكاد تفرق فيه بين لغة الشعر والنثر إذ أنك تحس وأنت تقرأ قطعة نثرية لبعضهم كأنما تقرأ نثراً منظوما ، أو نظما منثوراً لما يتجلى فى نثرهم من شفافية ورقة فى الألفاظ ، وتألق فى الخيال ، وإبداع فى التعبير .

٢ - العناية بالأمثال والحكم :

تبرز لدى أبي الوليد العناية بالأمثال والحكم فى نثره ، إذ نلمح فى ثناياه شيئاً من ذلك يعتمد فيه على تجاربه فى الحياة ، أو ماسمعه من الأسلاف ، أو اطلع عليه وقرأه فى كتب الأدب والأمثال ، فمن ذلك مثلا قوله فيما أجراه على لسان بعض النواوير (من مدح امرءًا بما ليس فيه فقد بالغ فى هجائه) وقوله أيضا : (اللبيب من عدّت سقطاته ، والأريب من حصّلت هفواته) وقوله من أمثالهم : رب عجلة تبعث ريثا ، ورحم الله القائل : وقد يكون مع المستعجل الزلل .

ويلاحظ هنا أن بعض ما أورده أبو الوليد من الأمثال يعد من قبيل الأقوال الجامعة التى تجرى مجرى المثل ، كما يبدو من المثلين الأول والثانى ، وبعضها من قبيل الأمثال المأثورة كما يظهر من المثال الأخير ، ويبدو أن الاعتماد على الحكم والأمثال من الظواهر المألوفة لدى الكتاب الأندلسيين ، ولاشك أن مثل هذا النهج ينم عن وعى وفهم عميق لواقع حياة الناس ، وما تعج به من أحداث ومشكلات اجتماعية وسياسية وثقافية تنعكس على ألسنتهم فى صورة حكم وأمثال .

٣ - القيم الأخلاقية والإنسانية :

استجلاء القيم الأخلاقية والإنسانية من خلال الوصف لمظاهر الطبيعة ، والمقدرة على إيجاد التلاحم بين هذه القيم المعنوية وبين مظاهر الوصف المادية لإبراز المعالم الجمالية المتجلية فى تلك القيم المعنوية وما تعلقت به من وصف الطبيعة ، ويلحظ ذلك فى النثر الأندلسى خلال القرن الخامس ، وبرز لنا عند أبى الوليد حينما نجده يقرن بين الجمال المادى فى الربيع وبين جمال الأخلاق التى اكتسبها من الشخص الذى وجهت إليه الرسالة ، وهو أبوه حيث يقول : (لما خلق الربيع من أخلاقك الغر ، وسرق زهره من شيمك الزهر ، حسن بكل عين منظره ، وطاب فى كل سمع خبره ، وتاقت النفوس إلى الراحة فيه ، ومالت إلى الإشراف على بعض ماتحتويه من النور الذى كسا الأرض حُللا) (١)

---

(١) البديع ٣٣ .

ونجد مثل ذلك فى مطلع رسالته التى أجاب بها على رسالة أبى الوليد العثمانى إذ يقول فى مطلعها : (فلمّا تعاهدت خيرَيْك عهاد شيمك ، ودامت عليه ديم كرمك بكر متنعما منها متنفسا عنها ، ولا ند له إلّا الند ، ولا مَسْك له إلا المِسك) (١) .

٤ - التشخيص :

- تبرز لدى أبى الوليد ظاهرة التشخيص المتمثلة فى استعمال الصور البيانية كالتشبيه والاستعارة والمجاز ، وقد برع فى هذا الجانب براعة ظاهرة فى أكثر صوره التى نسجها باتقان ينم عن موهبة ثرة ، وحسن أدب لماح ، وخيال مجنح واسع شأنه شأن لداته من الأدباء الأندلسيين ممن يعتز هو نفسه بمقدرتهم على الإبداع فى التشبيه ، وتفوقهم فى ذلك على أهل المشرق إذ نراه يقول فى مقدمة كتابه البديع : (لكن أهل المشرق على تأليفهم لأشعارهم ، وتثقيفهم لأخبارهم منذ تكلمت العرب بكلامها ، وشغلت بثرها ونظامها إلى هلمّ جراً لا يجدون لأنفسهم من التشبيهات فى هذه الموصوفات ماوجدته لأهل بلدى) (٢) ومثل هذا الكلام فيه شىء من المبالغة إذا أخذ على إطلاقه ، وقد يزول ذلك إذا قصرنا النظرة فى هذا الصدد على براعة الأدباء الأندلسيين فى مجال وصف الطبيعة شعراً ونثراً إذ امتازوا بألوان من التصوير والتشخيص جادت بها عليهم طبيعة بلادهم الفاتنة مما لم يكن متهيئا لأدباء المشرق ، وعلى أى حال فقد كان لأبى الوليد نصيب من براعة الأندلسيين فى التصوير والتشخيص ، فهو يتحدث عن نواوير الربيع التى اكتست الأرض منها بحلة بديعة تبدو كأنها نجوم نثرت على الثرى يقول عن الربيع : (حسن لكل عين منظره وطاب فى كل سمع خبره ، وتاقت النفوس إلى الراحة فيه ، ومالت إلى الإشراف على بعض ما تحتويه من النَّور الذى كسا الأرض حللاً ، ولا يرى الناظر فى أثنائها خللا ، فكأنها نجوم نثرت على الثرى ، وقد ملئت مسكاً وعنبرا) (٣) ويقول أيضا فى موضع آخر : (وقد

(١) المصدر السابق ١١٦ .
(٢) المصدر السابق ٤ .
(٣) البديع ٣٣ .

حللت محلاً عنى الجو بتحسينه ، وانفرد الربيع لتحصينه فكساه حللاً من الأنوار بها ينجلى صدأ البصائر والأبصار) [1] وفى رسالته التى أجرى الحوار فيها على ألسنة الأزهار نجد أن البيعة التى تمت للورد تفغر عن فيها فى قوله : (وصلت إلينا بيعة اشترى بها من سعى فيها ، وفغر عن فيها خسران الدنيا والآخرة) [2] ونجد أن الأقحوان والخيرى الأصفر يقرآن : (ثم قرأ عليه الأقحوان والخيرى الأصفر كتاب النواوير الربيعية) [3] كما نجد أن للسقم جلبابا ، وللهرم سربالاً فى قوله على لسان النرجس (تبًّا لتلك الفعلة الدميمة والقضية الذميمة التى جلببتنى جلباب السقم ، وسربلتنى سربال الهرم) [4] .

٥ - استعمال الجمل الدعائية والمعترضة :

استعمل الجمل الدعائية والمعترضة التى تأتى غالبا بقصد الدعاء لمن يوجه إليه الكلام ، ويكثر استعمالها فى الرسائل الديوانية كالمدح والتهانى ، والتعازى . ورسائل الشفاعة ، والوصايا ، والاستغاثة ، ومايجرى مجراها ، أما فى الرسائل الوصفية فيقل دورانها ، ونجد شيئا منها لدى أبى الوليد فى رسالته التى خاطب بها ذا الوزارتين القاضى بن عباد إذ يقول : (وهى يامولاى الذى رقه لى شرف ، وجوده على سرف ، ومن أبقاه الله لرفع شأن ودُود ، وضع شأن حسود) [5] وفى قوله على لسان النواوير الربيعية مخاطبة الأُقحوان والخيرى الأصفر : (فقنا وفقكما الله ، ولا أخلاكما من هداه بالنواوير المخاطبة لنا) [6] .

---

(١) المصدر السابق ٣٤ .
(٢) المصدر السابق ٦٤ .
(٣) المصدر السابق ٦٦ .
(٤) المصدر السابق ٦٩ .
(٥) المصدر السابق ٦٢ .
(٦) المصدر السابق ٦٤ .

ويشيع ذلك فى كتابه البديع عندما يمهد لمقطوعة شعرية أو نثرية قيلت فى حق بنى عباد أو من فى محيطهم من الأمراء والوزراء والقضاة [١] .

٦ - الأسلوب القصصى :

خاض أبو الوليد غمار الأسلوب القصصى الذى يعتمد على الحوار ، والذى شاع أكثر ما شاع فى الكتابة الوصفية ، وخاصة فيما أجرى على ألسنة الأزهار من المحاورات والمناظرات والمراسلات ، وذلك بما يمثل المعنى المبسط للقصة فى مفهومها ونمطها المألوف لدى الأدباء القدامى فيما أثر عنهم من حكايات وأخبار ، ومؤلفات ذات طابع قصصى مما لايصل إلى حد المفهوم المتعارف عليه لفن القصة فى العصر الحديث ، والبناء القصصى بالمفهوم الذى أشرنا إليه يتحدد عند أبى الوليد فى رسالته التى أجاب فيها على رسالة أبى حفص بن برد ، ورد عليه فيما زعم من تفضيل الورد على بقية النواوير ، ومنهم البهار الذى انتصر له أبو الوليد وجعله المقدم على سائر الأزهار بعد محاورات ومداولات ومناظرات ومراسلات دارت بين البنفسج ، والنرجس ، والخيرى النمام ، والأقحوان ، والخيرى الأصفر ، وبين نواوير الربيع ، وكل منهم تحادث مع الآخر ، وحاوره ، وراسله ، وأفصح عن رأيه وموقفه ، وقد استعرضنا هذه الرسالة فيما سبق ، ورأينا إلى أى حد استطاع أبو الوليد أن يستنطق الأزهار ، ويجرى على ألسنتها بخياله المجنح صوراً من النثر الفنى تارة ، ومن الشعر المعبر تارة أخرى ، يسرد من خلالها فى الظاهر أبرز ماتتصف به الأزهار من صفات الجمال لمن له حظ عنده ، أو صفات الذم والقدح لمن ليس له حظ ، وتم ذلك فى مجلس اجتمعت فيه زمرة من النواوير هى البنفسج ، والخيرى النمام ، والبهار ، والنرجس ، وقد اتفقت هذه الأزهار على تقديم الورد وتفضيله ، وكتبت بذلك كتاباً إلى صنوف الأزهار تأمرها بالوقوف عندما اتفقت عليه غير أن نواوير الربيع انبرت لها وراحت

---

(١) انظر المصدر السابق ١٠ ، ١١ ، ٢٩ ، ٤١ ، ٤٤ ، ٤٦ ، ٨٦ ، ٩٣ ، ١٢٩ .

تعمل على إبطال ما ذهبت إليه ، وكتبت بذلك إلى أقرب الأزهار إليها إلى الأقحوان ، والخيرى الأصفر ، وقد اقتنعا بما جاء فى رسالة نواوير الربيع من تفضيل البهار على الورد وغيره ، وقاما بدورهما فى إقناع الأزهار بموقفهما وموقف نواوير الربيع ، وانتهى الأمر بعقد البيعة للبهار بعد أن ناله شيء من التأنيب الرقيق على تناسبه لفضله ، وانضمامه لبعض الأزهار فى الاتفاق على تفضيل الورد (١) .

على أن أبا الوليد لم يكن مبتكراً لهذا اللون من النثر الذى يعتمد على الأسلوب القصصى ، بل له جذور سابقة فى آثار الأدباء من المشارقة والأندلسيين فقد وجدنا منه بدايات أولية فى العصر الجاهلى والإسلامى تجلت فى الشعر ، وبعض ألوان النثر ، غير أن البناء القصصى المتماسك إنما بدأ يطل علينا فى أواخر عهد الدولة الأموية على يد ابن المقفع الذى طلع علينا بروائع من النثر العربى فى كتابه :الأدب الصغير ، والأدب الكبير وأطلعنا على بعض آثار الأدب الفارسى مما ينحو المنحى القصصى حينما ترجم كليلة ودمنة ، واتسعت دائرة البناء القصصى فى العصر العباسى ، وأبرز ما يتجلى فيه ذلك ما ظهر على يد الجاحظ فى كتابه : البخلاء ، إلى جانب ظهور المقامات ، وكثرة القصاص ، والوعاظ ، والمذكرين الذين يسردون الحكايات والقصص ، وما كان من ميول بعض الشعراء إلى الأسلوب القصصى فى شعرهم كما يتضح لدى أبى نواس وغيره من الشعراء .

أما الأدباء الأندلسيين فقد كان لهم اهتمام واضح بالبناء القصصى فيما لهم من نثر فنى ، ويتجلى ذلك عند رائد من روادهم فى هذا المضمار ذلكم هو الشاعر والكاتب الأندلسى المشهور أبو عامر بن شهيد الذى أنشأ رسالته المعروفة بالتوابع والزوابع ، وبناها بناء قصصيا خياليا يتسم بالبراعة الفنية ، والقدرة البيانية على تصوير رحلته الخيالية فى عالم الجن واللقاء بشياطين الشعراء ، والخوض على ألسنتهم فى أحاديث شيقة تتصل بالأدب والشعر والفكاهة والطرائف ، وكان لذلك أثره الواضح

---

(١) انظر البديع ٦٢ - ٧١ .

على من جاء بعد ابن شهيد من الأدباء والكتاب الأندلسيين الذين انتهجوا الأسلوب القصصى فى كتاباتهم ولاسيما الكتابة الوصفية ، على نحو ما نجد عند أبى حفص بن برد فى رسالته التى فضل فيها الورد ، وأجرى الحوار فيها على السنة الأزهار [1] ومن ثم تأثر به أبو الوليد فى رسالته التى عرضنا لها ، والتى أجاب فيها على رسالة أبى حفص ابن برد ، ولعل أبا الوليد حينما جنح إلى مثل هذا الأسلوب القصصى فى رسالته إنما كان يهدف إلى إمتاع القارئ والسامع ومؤانسته بلون خيالى من التعبير فيه جاذبية ، ومتعة فنية تشد المتلقى له ، وترضى ذوقه ، وتتجاوب مع ميوله ، وميول الإنسان بعامة إلى الخيال ، وحيوية أسلوب النص بالحوار والمناظرة ، وربما كان فى هذا الأسلوب متنفسا للأديب للتعبير عن مشاعره بشكل غير مباشر .

٧ - المحسنات البديعية :

استعمل أبو الوليد بعض المحسنات البديعية كالسجع ، والجناس ، والطباق ، وله فى هذا المجال باع طويل ينم عن مدى مايتمتع به من ثروة لغوية ، وحذق لمواطن الجمال فى استخدام الألفاظ استخداماً يجعلها تتناغم تناغماً موسيقيا ، وتتناسق وتتساوق حينا ، وتتفق شكلاً ، وتختلف دلالة ومعنى أحيانا ، أو تختلف شكلاً ، وتتضاد معنى ، ويكاد فى استعماله للمحسنات البديعية أن يقف موقف القصد والاعتدال ، وأن يصدر فيها عن عفو الخاطر دون تكلف ، أو تصنع بالقدر الذى يحسن به الإيقاع ، وترتاح إليه الأسماع .

ويمتاز السجع لديه إلى جانب ماذكر بقصر الفقرات ، وسهولة الألفاظ ، وعدم التكلف فمن ذلك قوله : (لما خلق الربيع من أخلاقك الغر ، وسرق زهره من شيمك الزهر ، حسن لكل عين منظره ، وطاب فى كل سمع خبره) [2] .

---

(١) انظر المصدر السابق ٥٧ - ٦٢ .

(٢) المصدر السابق ٣٣ .

وقوله : (قد علم سيدى أن بمرآه يكمل جذلى ، ويدنو أملى ، وقد حللت محلاً عنى الجو بتحسينه ، وانفرد الربيع لتحصينه ، فكساه حللاً من الأنوار بها ينجلى صدأ البصائر والأبصار) [1] وقوله : (فلما تعاهدت خيريك عهاد شيمك ، ودامت عليه ديم كرمك) [2] ، ونجد الجناس فى قوله : (والله ما أرق بصرى ، وأرق بَشَرى ، وأغاض نهاراً ماءَ بِشْرى ، وأعمد فيه سيف نشرى) [3] وقوله : (ولا ندله إلا النَّد ، ولامَسْكَ له إلا المِسْك) [4] أما الطباق فتجده فى قوله : (وأنّبا البهار مفرداً تأنيباً يقيمه ويقعده) [5] والطباق بين يقيمه ويقعده ، وفى قوله : (ونفديه لفضله علينا بالطريف والتليد) [6] بين الطريف والتليد ، وفى قوله : (من غاب عنها بشخصه ، ولم يحضرها بنفسه) [7] بين غاب وحضر .

٨ - الألفاظ :

تمتاز ألفاظه بالسهولة ، والبعد عن الغرابة ، ويصعد غالباً إلى اختيار الألفاظ المغيرة ذات التناغم الموسيقى كما فى قوله : (فلما وصل كتاب النواوير الربيعية وهى متصلة من تلك الخطيّة وقع فيها مواقع الماء من ذى الغلة الصادى ، وقوله على لسان البهار : (والله مادخلت معهم فى ما أحدثوه ولا تابعتهم على ماصنعوه إلا حياءً من تعريفهم بمالا يجهله الجاهلون ، ولا يغلط فيه الغالطون ، وليس من ترك حقه ملوما ، وإنما الملوم من تسور على غير حقه وادعى سوى واجبه ، ولولا بدوّ ذلك لجميعكم ،

---

(١) البديع ٣٤ .
(٢) المصدر السابق ١١٦ .
(٣) المصدر السابق ٦٩ .
(٤) المصدر السابق ١١٦ .
(٥) المصدر السابق ٦٥ .
(٦) المصدر السابق ٦٥ .
(٧) المصدر السابق ٦٨ .

وظهوره إلى رفيعكم ووضيعكم) [1] فأنت ترى هنا كيف استعمل للتعبير عن مراده ألفاظاً سهلة معناها فى متناول الجميع إلى جانب ماتحمله من جرس موسيقى فى ذلك التجانس بين : (الجاهلون الغالطون ، لجميعكم ، رفيعكم ، وضيعكم) .

ويلاحظ أنه يستعمل الألفاظ ذات الدلالات المتعددة من حيث المعنى ، والمتفقة من حيث المبنى فى حروفها مع الاختلاف فى الحركة والشكل مما يعرف بالمثلث لدى علماء اللغة ، ويظهر ذلك فى قوله : (ولا ندّ له إلا النَّد ولا مَسْك له إلا المِسْك) [2] وقوله : (تحت جَناح الظلام ليسلم من الجُناح والملام) [3] وفى ذلك دلالة على مايتمتع به من ثروة لغوية ثرة .

---

(١) المصدر السابق ٦٧ .

(٢) المصدر السابق ١١٦ .

(٣) المصدر السابق ١١٦ .

ثالثا – أبو الوليد الناقد

أ – تمهيد حول النقد فى الأندلس قبل أبى الوليد وفى عصره :

بدأ النقد الأدبى فى بلاد الأندلس وليداً مع بداية النهضة الأدبية حيث كان طلاب العلم ، والمتطلعون إلى الأدب يتلقفون مايفد إليهم من المشرق من شعر ونثر ولغة ، ويتناقلونه فيما بينهم ، ويتناولونه بالدرس والشرح والتعليق فى منتدياتهم العامة ، وفى مواطن الدرس والتعليم ، وكان لجامع قرطبة فى أواخر القرن الثانى دور كبير فى إثراء الحركة العلمية ، والأدبية فى الأندلس ، إذ كان مهوى أفئدة طلاب العلم ، وملتقى العلماء يتدارسون فيه علوم الشريعة ، واللغة ، والأدب ، والتاريخ ، وغير ذلك من العلوم الأخرى ، وقد رحل بعض علماء الأندلس إلى المشرق والتقوا ببعض العلماء ورواة اللغة والأدب والشعراء ، فممن رحل نجد مثل الغازى بن قيس المتوفى سنة (١٩٩) (١) ومثل عثمان بن المثنى من أهل قرطبة يكنى أبا عبد الملك رحل إلى المشرق فلقى جماعة من رواة الغريب وأصحاب النحو والمعانى ، منهم محمد بن زياد الأعرابى ، والتقى بالشاعر أبى تمام حبيب بن أوس الطائى وقرأ عليه ديوان شعره ، وأدخله الأندلس رواية عنه ، وأدب أولاد الإمام عبد الرحمن بن الحكم ، وتوفى سنة ثلاث وسبعين ومائتين (٢) ، وكان لذلك أثره على بعض المؤدبين الأندلسيين الذين نقلوا بعض آثار المشارقة فى النقد ولاسيما نقد الرواة ، وفى هذه الفترة كان تناول الأدب شعراً ونثراً يتميز بالبساطة ، والتوجيهات الذاتية التى تدور غالباً حول الألفاظ ، وتوضح بعض المعانى ، والإشارات البلاغية ، وإذا كنا فى هذه الفترة لا نملك من النصوص مايكفى لرسم صورة واضحة المعالم لطبيعة اللفتات النقدية ، فإننا فى القرن الرابع نجد أسماء تلمع فى الأفق ، وتعمل على اتساع صدى الحركة النقدية الأندلسية ، ونلمح فيها بريقا لبعض الملامح النقدية التى تدور فى أوساط المشرق إذ نجد لدى الأندلسيين الاتجاه إلى تأليف كتب فى طبقات الأدباء والشعراء تتحدث عنهم ، وترصد آثارهم ، يذكر لنا ابن الفرضى أن الأقشتين محمد بن موسى بن هاشم بن

---

(١) انظر بغية الوعاة (٢/ ٢٤٠) .

(٢) تاريخ علماء الأندلس القسم الأول ٣٠٢ رقم ٨٩١ .

يزيد [١] (ت ٣٠٧) قد وضع كتاب طبقات الكتاب فى الأندلس ، كما ألف عثمان بن سعيد الكنانى (ت ٣٢٠) كتاب طبقات الشعراء بالأندلس [٢] ومن مثل هذه المؤلفات نحس بالاتجاه إلى مبدأ الطبقات الذى كان معروفاً فى المشرق منذ وقت مبكر على يد محمد بن سلام الجمحى المتوفى سنة (٢٣١) فى كتابه طبقات فحول الشعراء ، وهو مبدأ قد يعتمد تقسيم الشعراء فى طبقات على أساس من الإجادة والقوة والفحولة فى الشعر ، أو على أساس من البيئات ، أو الزمن ولا يخلو من سرد نصوص شعرية مع بعض التعليقات ، والملاحظات التى تشتمل على شىء من الملامح النقدية ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل إننا نجد أنفسنا فى أوائل القرن الرابع أمام موسوعة أدبية ضخمة تمثلت فى كتاب العقد الفريد للأديب الشاعر أحمد بن عبد ربه المتوفى سنة (٣٢٨) ولو أردنا أن نفصل القول فى هذا الكتاب ، ومنهجه ، وهدفه ، وما اشتمل عليه من آثار المشارقة ، وما عرضه خلال ذلك من قضايا أدبية ونقدية لطال بنا أمد الحديث ، ويهمنا هنا التنويه على أن ابن عبد ربه يمثل بكتابه العقد الفريد نقطة التلاقى بين أدباء المشرق والأندلس ، ويعرض لكثير من القضايا النقدية المأثورة عن رواة الأدب واللغة فى المشرق ، من مثل بعض القضايا النقدية التى تتصل بالبلاغة والبيان ، والكتابة والكتاب ، والشعر والشعراء ، ومايعاب من الشعر ، وما لا يعاب ، وتقبيح الحسن ، وتحسين القبيح ، والضرائر ، وبعض الأمور التى تتعلق باللفظ والمعنى ، وفضائل الشعر وسرقاته . ولاشك أنه بذلك يضع بين أيدى الأندلسيين أسساً نقدية مشرقية ، وكان صنيعه هذا من العوامل الأساسية التى أدت إلى توسيع دائرة النقد وتطوره فى الأندلس إلى جانب المؤثرات الأخرى المتمثلة فى ظهور مدرسة أبى على إسماعيل بن القاسم القالى (ت ٣٥٦) فى كتابه الأمالى الذى نقل به آثارهم وأدبهم إلى الأندلس مع مايعن له من ملاحظات نقدية ، وقد توخى به هدفا تأديبيا يرمى إلى صقل المواهب الأدبية بما أورده فيه من شعر ونثر وأخبار ولغة ، وكأنه يتمثل فى ذلك ماقرره الأصمعى بقوله : (لا يصير الشاعر فى

---

(١) المصدر السابق القسم الثانى ٢٩ - ٣٠ رقم ١١٧٣ .

(٢) المصدر السابق القسم الأول ٣٠٣ رقم ٨٩٢ .

قرض الشعر فحلاً حتى يروى أشعار العرب ، ويسمع الأخبار ، ويعرف المعانى ، وتدور فى مسامعه الألفاظ) [1] ومن الأمور التى برز فيها النقد لدى الأندلسيين خلال القرن الرابع ماكان من ظهور بعض الشروح للشعر من مثل شرح ديوان صريع الغوانى لأبى العباس وليد بن عيسى بن حارث بن سالم المعروف بالطبيخى ، أو الطينيجى (ت ٣٥٢) الذى كان (بصيراً بالشعر ، حسن الاستنباط لمعانيه ، جيد النظر فيه ، شرح شعر أبى تمام الطائى ، وشعر مسلم ابن الوليد ، فأخذ الناس عنه هذه الشروحات ، وكان مؤدباً بعيد الاسم فى التأديب يتنافس فيه الملوك) [2] وفيما بين القرنين الرابع والخامس نلتقى بنقاد أندلسيين مبدعين يأتى فى طليعتهم أبو عامر عبد الملك بن شهيد المتوفى سنة (٤٢٦) وهو صاحب الرسالة الخيالية المشهورة باسم التوابع والزوابع التى ناقش فيها قضايا أدبية ونقدية جديرة بالاهتمام صدر فيها عن وعى وتجربة ، وهى تمثل منعطفاً جديداً فى النقد الأندلسى غير الذى كان معهوداً فى حلقات المؤدبين والمعلمين الذين يعتمدون على أحكام سريعة ولفتات نقدية فردية ذوقية ، إذ نجد له نظرات نقدية عميقة تتناول أساليب الأدباء والشعراء ، وخصائصهم ، ومدى حظهم من الجودة ، والإبداع الفنى ، والموهبة والبيان ، والبديهة الشعرية ، واللفظ الرائق ، والمعنى الرفيع ، وتناول ذلك بأسلوب قصصى مبتكر يعتمد على الخيال ، وعرض من خلاله مواقفه من أهم القضايا الأدبية والنقدية .

وفى هذه الفترة أيضا نلتقى بأحد النقاد المشهورين من شراح الشعر ، وهو أبو القاسم إبراهيم بن محمد المعروف بابن الأفليلى (ت ٤٤١) [3] الذى شرح ديوان المتنبى ، وتعرض فى ثنايا شرحه لكثير من القضايا اللغوية والبلاغية ، والأدبية والنقدية شأنه فى ذلك شأن الشراح الآخرين الذين تناولوا ديوان المتنبى بالشرح . ولا

---

(١) المصدر السابق القسم الأول ٣٠٣ رقم ٨٩٢ .

(٢) تاريخ علماء الأندلس القسم الثانى ١٦٢ رقم ١٥١٢ .

(٣) انظر ترجمته فى الذخيرة القسم الأول المجلد الأول ٢٤٠ ، وجذوة المقتبس ١٤٢ – ١٤٣ .

ننسى ابن حزم الأندلسى (ت ٤٥٦) الذى كانت له آراء نقدية أودعها فى رسالة له سماها رسالة مراتب العلوم (١) ، وقد كان لهؤلاء النقاد دور بارز فى ازدهار الحركة النقدية بالأندلس خلال القرنين الرابع والخامس .

ب – المعالم والقضايا النقدية عند أبى الوليد

فى هذا المحيط للنقد الأدبى فى الأندلس الذى استعرضناه استعراضاً سريعاً وموجزاً ظهر الأديب الناقد أبو الوليد إسماعيل بن عامر الحميرى بتوجيهاته وملاحظاته وآرائه النقدية التى أودعها كتابة : (البديع فى وصف الربيع) وقد ضم الكتاب بين دفتيه قضايا نقدية جوهرية تشكل لبنات جديرة بالعناية والاهتمام فى تاريخ النقد الأدبى ، إذ نراه يحلق فى آفاق نقدية تمس ركنى النص الأدبى المتمثلين فى الشكل والمضمون مع الكشف عن مواطن الجمال فى الصورة البيانية ، وموازنات ، ومقارنات بين المقطوعات الشعرية ، وتحليل للألفاظ إلى أحكام عامة تنم عن ذوق ، وإدراك لمواطن الحسن والإبداع ، ومن إلماح إلى السرقات إلى الإشادة بسرعة البديهة ، والمعانى المخترعة ، والأوصاف المبتدعة ، وحسن الإنتقال من غرض إلى غرض مما يتصل بالأغراض الشعرية ، وعلى الرغم من ذلك لم نجد من عنى بآرائه النقدية عناية كافية من الباحثين فى تاريخ النقد الأندلسى ، ومنهم الدكتور رضوان الداية الذى اكتفى بإشارات عابرة لم تتجاوز صفحة واحدة ، والدكتور مصطفى عليان عبد الرحيم ، وهو فى تقديرى أوفر حظاً من سابقه حيث تناثرت لديه إشارات لبعض آراء أبى الوليد النقدية فى مواطن متفرقة من كتابه تيارات النقد الأدبى فى الأندلس فى القرن الخامس . ونحاول هنا أن نعرض بشيء من الإيضاح والتفصيل لما وقفنا عليه من أراء أبى الوليد وملاحظاته النقدية التى تبرز لنا فى كتابه البديع وذلك على النحو التالى :

١ – الصور البيانية والتشبيهات :

عنى أبو الوليد عناية واضحة ملموسة بالتنويه عن صفات الحسن والجمال ، والإبداع فى الصور البيانية التى تتجلى فيما يعرضه ويختاره من الشعر ، ولا سيما

---

(١) انظر تاريخ النقد الأدبى فى الأندلس ٣٠٧ .

التشبيهات التى تشيع فى أشعار الأندلسيين التى يعتبرها بعضهم أساس تفوقهم ، وموطن اعتزازهم ، وتفاخرهم على من سواهم من أدباء المشرق فيما عرف عنهم من تلاح بينهم وبين الأدباء المشارقة ، ونحا هذا النحو أبو الوليد نفسه حينما أشاد فى مقدمة كتابه البديع بتشبيهات الأندلس التى قصر كتابه عليها ، ويشيد بها إشادة تشم منها رائحة التعصب والمغالاة التى يمحو بها كل أثر للإجادة عند المشارقة إذ يقول ولكن أهل المشرق على تأليفهم لأشعارهم ، وتثقيفهم لأخبارهم منذ تكلمت العرب بكلامها ، وشغلت بنثرها ونظمها إلى هلم جرا لا يجدون لأنفسهم من التشبيهات فى هذه الموصوفات ما وجدته لأهل بلدى على كثرة ماسقط منها عن يدى بالغفلة ... فلهم فيه من الاختراع الفائق ، والابتداع الرائق ، وحسن التمثيل ، والتشبيه ما لا يقوم أولئك مقامهم فيه) [1] ولعل مما يعزز هذا الاتجاه أننا نرى من الأندلسيين من يعمد إلى إفراد تشبيهاتهم بالتأليف ، ويخصها بالتصنيف كما صنع أبو عبد الله محمد بن الكتانى الطبيب المتوفى سنة (٤٢٠) فى كتابه التشبيهات من أشعار أهل الأندلس ، وكأنى بأبى الوليد يسعى إلى ماسعى إليه سابقه من رصد التشبيهات سوى أنه حصرها فى دائرة وصف مظاهر الطبيعة وأزهارها ، بينما أفرد أبو عبد الله لذلك جزءاً يسيراً من كتابه الذى أورد فيه صوراً من التشبيهات فى موضوعات متعددة متنوعة ، ومن ذلك ندرك مدى عناية الأدباء ، والنقاد الأندلسيين بالصورة الشعرية تلك العناية التى جعلت أبا الوليد يصرف القول فى التشبيهات على وجوه عديدة نتمثلها فيما يلى :-

(أ) يحرص أبو الوليد على الكشف عن مواطن الحسن والجمال فى صور التشبيه التى ترد لدى الشعراء ويحاول أن يتلمس ذلك بإبراز صورة التشبيه مع الإفصاح عن مكامن الجمال فى رسم تلك الصورة ، فمن ذلك أننا نراه يورد مقطوعة لأبى عمر الرمادى يصف فيها الربيع ، ويعجب منها بوصفه للسحائب حين يقول :

---

(١) البديع ٤ .

في إثرها وقفت ملاحم تجتلى التاريخ بين سحائب ومحول
فكأنها جيش بدهم خيول غاز إلى جيش بشهب خيول

ويفصح عن هذا الإعجاب بقوله : (قوله : فكأنها جيش بدهم خيول البيت شبه السحاب فى اسودادها بالخيل الدهم ، والأرض فى ابيضاضها قبل النبات بالخيل الشهب ، وهذا من أبدع ما استعير لهذا الموضع ، ومما حسّنه ذكر الغزو بينهما) (١) .

وفى موطن آخر يذكر قطعة لأبى جعفر بن الأبار يصف فيها الباقلاء يقول :

وباقِــــلاء باقــــل يُعْجبُ حسنا من رمقْ
كــأنــمــا نوّاره إذْ رَاق خلْقا وخُلُقْ
أذْقـان بيض غُلّـقتْ لمبصر ومُنْـــتشِقْ
أو أعينٌ حور جرت إلى مآقيها الحدقْ
وهــدبها مُستَبْطِــن فى ورق من الـورقْ

ولم يفت أبو الوليد أن يكشف لنا عن بديع التشبيه فى هذه الأبيات فيقول : (قوله : جرت إلى مآقيها الحدق . بديع غريب لأن السّواد الذى جعله حدقةَ العين هو فى ناحية من النّور ، وليس متوسطاً له ، فكأن الحدقة قد جرت إلى المآق ، وهو طرف العين مما يلى الأنف ، وهُدْبها مستبطن : البيت وهو مما أكمل به الوصف ، وتمم التشبيه ، لأن فى الورقة التى ظاهرها تلك الصفة المتقدمة خطوطاً سوداً جعلها هدباً لتلك العيون) (٢) .

وهو حينما يذكر التشبيهات النادرة ، والمخترعة دون أن يعقب عليها بشىء من الإيضاح الذى يعزز به حكمه فى الإعجاب ، والاستحسان فعند قول ابن القرشية :

كأن الثرى ستر تُمدّ خلاله بأكواس راح راحهن الكواعب
يسترن من فرط الحياء معاصما بأكامهن الخضر عَمَّن يراقب

نراه يمهد لهذه القطعة فيقول : (من التشبيهات العقم التى تدل على يقظة

(١) المصدر السابق ١٤ .
(٢) المصدر السابق ١٥٧ .

الفهم قول ابن القرشية عبد العزيز بن المنذر بن عبد الرحمن الناصر لدين الله ، ثم يعقب بقوله : (جعل قُضْبَه الخضر معاصم مستورة بأكمام خضر ، وجعل أكفّها مُبْيضة وكؤوسها مصفرة) [(١)] ويضع ذلك غالبا فى أكثر المقطوعات التى يمهد لها بعبارات الإعجاب والاستحسان (مثل من السابغ برد كماله ، السائغ ورد جماله) [(٢)] ومثل . (ومن غريب الوصف فى عجيب الرصف) [(٣)] .

وهنا نلاحظ أن أبا الوليد يتأمل فى تركيب الصورة ، ويستجلى ما تنطوى عليه من إبداع يثير الإعجاب بها ، ويدفع إلى استحسانها ، وهو يصدر فى ذلك عن ذوق فنى رفيع ، وحسن أدبى مرهف ، وتأمل دقيق لملامح الجمال فى صور التشبيه .

(ب) لأبى الوليد موقف واضح من التشبيهات المألوفة التى تشيع فى أوساط الشعراء ، ويتداولونها فيما بينهم بأشكال شتى غير أن منهم من يدور فى الفلك المألوف دون تميز أو إبداع ، ومنهم من يأخذ الصورة المألوفة ، ويضفى عليها من مواهبه حلة قشيبة مبدعاً ومجدداً فيما هو مألوف لدى غيره من الشعراء ، وقد لفت أبو الوليد أنظارنا إلى هؤلاء الذين يقصدون إلى الاتباع مع الإبداع والتجديد ، وذلك حينما أسمعنا قول أبى عبد الملك الطّليق يصف الورد والبهار :

وكأن الورد يعلوه الندى وجنة المعشوق تندى عرقا

ثم يعقب بقوله : (تشبيه الورد بوجنة المعشوق كثير إلا أنه أغرب بزيادة الندى ومقابلته بالعرق) [(٤)] وقد يدلى بشىء من التوجيه للشعراء الذين يأتون بشىء من التشبيهات المعروفة لكى يتهيأ لهم الإبداع ببعض التصرف فى الصورة فهو عند قول أبى عمر يوسف بن هارون الرمادى يصف الورد والأقاحى :

---

(١) المصدر السابق ١٠١ .

(٢) المصدر السابق ١٥٢ .

(٣) المصدر السابق ٨ .

(٤) المصدر السابق ٣٩ .

وفى الورد غضا والأقاحى محاسن سرقن من الأحباب للمتشوق
خدود عذارى لو تقصى حياؤها وأفواه حور لو سمحن بمنطق

نراه يوجه بقوله : (هذان التشبيهان معروفان لاسيما قلبهما ، ولكن لوفُقِّهما حسّنتهما معاً ، وأبدعت فيها بِدعا) [1] فهو هنا يطالب بإيضاح الصورة التى أعتورها شيء من الغموض بقلب التشبيه غير أننا فى موطن آخر نراه يشيد بالتجديد ، والإبداع فى الصورة المألوفة حينما لجأ الشاعر أبو الأصبغ إلى قلب الصورة بنقل الوصف المعروف للخدود إلى وصف الورد فى قوله :

الورد ماء ونـــار سالا على وجه بضّهْ
ضدان فى صحن خد قد ألفا بعد بغضه

ومثل هذا التصرف يعد عند أبى الوليد (. غايةٌ ووصف الورد نهاية ، وإن كان معروفا فى وصف الخدود ، فقلبه إلى وصف الورد ، مما أحسن فيه ، وأغرب به) [2] .

وفى بعض الأحيان نجد أبا الوليد لا يقف فى تحديد التشبيهات المألوفة موقفاً واضح المعالم ، بل يعتوره شيء من التردد ، والظن بحيث لا ندرى على وجه التحديد هل ماجاء به الشاعر يعد من التشبيهات المألوفة التى أضفى عليها من صنيعه مايجعله مبدعاً فى استجلائها ، أم أنها من اختراعه أصلاً ، كما يظهر من تعقيبه على أبيات للحاجب ابى الحسن جعفر بن عثمان المصحفى :

انظر إلى الروض الأريض تخاله كالوشى نمْق أحسن التنميق
وكأنما السنان صب مدنف لعبت يداه بجيبه المشقوق
يوم الوداع ومزقت أثوابه جزعاً عليه أيما تمزيق

يقول : شبه السوسن فى افتراقها بجيب مشقوق ، وهو معنى دقيق ، وقد تداوله جماعة ، وأظنه من اختراعه) [3] .

---

(١) المصدر السابق ٤٠ .
(٢) المصدر السابق ٥٢ .
(٣) المصدر السابق ٣٧ .

ويبدو أن مثل تلك المواقف من أبى الوليد تنطوى على رغبة منه فى الإشادة بمواهب الشعراء الأندلسيين ، ومقدرتهم على الإبداع بما يخرجهم عن دائرة الاتباع ، ولعله بذلك يؤكد موقفه من الدفاع عن تشبيهاتهم ، والتمادى فى تفضيلها على مايوجد فى بابها لدى المشارقة كما عرفنا سابقا ، وهو وإن كان يجنح فى بعض أحكامه إلى التعميم دون طرق التعليلات الكافية والمقنعة إلا أنه وفق إلى حد ما فى استجلاء مكملات الصورة التى تخرجها حسب تقديره من حيز الاتباع إلى حيز الإبداع .

(جـ) كثيراً مايصدر أبو الوليد فى إعجابه بالتشبيهات عن أحكام عامة يطلقها فى مستهل تقديمه لمقطوعة ، أو فى ثنايا التعقيب عليها ، فأبيات أبى الحسن ابن على فى وصف السوسن تحمل أوصافاً حسنة ، وتشبيهات جيدة (١) ، ولأبى عمر أحمد بن فرج الجبانى قطعة فى الربيع غريبة التشبيه (٢) ، ولأبى عمر الرمادى أيضا قطعة حسنة يصف فيها الربيع من قصيد مطول بديع التشبيهات ، ونجد له أيضا مثل قوله : فمن التشبيهات العقم قول أبى القاسم بن هانى الأندلسى (٣) ، وقوله : ومن التشبيهات الأنيقة والتمثيلات الدقيقة قول أبى جعفر بن الأبار (٤) وغالبا مايكون هذا التعميم غير ممثل لوجهة نظر نقدية متأنية تتعمق النص ، وتستجلى محاسنه بدقة ، وروية تدفع إلى القناعة بما يصدر عن الناقد من استحسان وإعجاب بقدر ما يمثل وجهة نظر فردية تعتمد على الذوق الخاص ، والتأثر الذاتى السريع .

(د) كشف عن أثر البيئة فى التشبيهات الأندلسية ، واعتبر تمثلها واستيحاءها مثار إبداع وإعجاب ، وملاءمة للطبع ، وبعداً عن التصنع ، فعند قول أبى عمر أحمد ابن فرج ، وقيل أخوه عبد الله يصف النرجس :

ونرجس تَطْرِف أجفانه   كمقلة قد دب فيها الوسن
كأنه من صفرة عاشق   يلبس للبين ثياب الحزن

---

(١) المصدر السابق ١٣٩ .

(٢) المصدر السابق ٨ .

(٣) المصدر السابق ١٦١ .

(٤) المصدر السابق ١٦٢ .

نرى أبا الوليد يقول : (جرى فى ثياب الحزن على مذهب الأندلس إذ ثياب حزنهم بيض ، وهو تشبيه بديع ، وتمثيل رفيع ، ومعنى مطبوع) [(١)] .

وكأن أبا الوليد يقرر بذلك أثر البيئة الفعال فى تشكيل الصورة ، وابرازها فى ثوبها الجذاب بتفاعل الأديب مع مايقع عليه نظره من مرئيات ، ويجرى فى محيطه من عادات وتقاليد ، وهذا ملمح نادر ينم عن نظره عميقة ووعى متفتح وذهن متوقد .

٢ - البديهة والارتجال :

وفى معرض الكشف عن مواطن الجمال فى صور التشبيه لا يغفل أبو الوليد عن التنويه بدور البدّية ، وماالها من ميزة فى اكتساب النص الشعرى الجيد حسناً على حسن لاشتماله على صور بديعة صدر فيها الشاعر عن بديهة وعفو خاطر دون تكلف ، أو كد للقريحة ، ومع ذلك الغرض ، وجاء بدقيق المعانى ، والتشبيهات التى لا مثيل لها مما يعجز عنه من يتكلف فى صناعة النظم ، ويجهد نفسه فيها ، ويبدو ذلك من تعليقه على القطعة التى أوردها لذى الوزارتين القاضى الجليل فى وصف النيلوفر وهى :

كأنما النيلوفر المستحـ ـسن الغض البَهِج
مقلة خود ملئت سحراً وغنجا ودَعج
أو خاتم فى مضّة ومصه من السّبـج

ثم أخذ فى التعقيب عليها ، والكشف عن صورة التشبيه ، والإعجاب بتلك الصورة مما زاده إعجاباً بها أنها جاءت على البديهة دون تكلف يقول (شبه فى البيت الثانى بالعين فى السواد الذى بياضه هو أولى بهذا التشبيه ، وأحق أن يضاغ فيه من كل ما شُبه بالعين من البهار وغيره الذى لاسواد فيه يؤيد حقيقة تشبيهه ، وينصر صحة تمثيله ، ومثل هذا التشبيه المعدوم الشبه ، والتمثيل المنقطع المثيل لو وقع لمشتاق بصناعة الشعر عاكف على صناعة النظم مجهد نفسه فيها مُعان لمعانيها لاستغرب غاية الإستغراب ، واستعجب نهاية الاستعجاب ، فكيف ترى فضله ، وتعامين نبله ، وهو لا يعانى هذا ، ولا يتفرغ له ، وإنما عفو

(١) المصدر السابق ١٠١ .

سجيته ، وفيض بديهته) [1] .

ويظهر أن مفهوم البديهة عند أبى الوليد يقترن بالارتجال ، وسرعة تدفق المعانى والقوافى ، وكأنه لا يفرق بينهما بحسب ماهو سائد لدى بعض الأدباء ، والنقاد الأندلسيين فى حين أن هناك من يرى التفرقة بينهما - كما سيأتى - ولهذا نراه يحكى إعجابه ، وإعجاب أبيه وأبى الأصبغ بأبيات للقاضى ابن عباد أملاها على البديهة ، ومقياس إعجابه بها سرعة البديهة ، والقدرة على تدفق المعانى والقوافى فى التشبيهات الرائقة ، والصفات الرائعة ، يقول فى التعقيب على أبيات القاضى ابن عباد التى مطلعها :

أبلغ شقيقى عنى مقالـــة لتُـــــمضّه

قال أبو الوليد سمعت أبى وأبا الأصبغ يقولان : والله ما أكمل إملاء الأبيات بتلك التشبيهات الرائقة ، والصفات الرائعة إلا ونحن قد بهتنا من سرعة بديهته ، وقدرة فكره على تهذيب قوافيها ، وتذهيب معانيها فى أسرع من لا فى اللفظ ، وأعجل من رجع اللحظ) ولم يكتف بذلك بل راح يؤكد إعجابه بالأبيات ، وما اشتملت عليه من تشبيهات (كلها مستول على غاية الكمال مستوف نهاية الجمال) وزاده إعجاباً بها كونها جاءت عفو الخاطر على البديهة ذلك لأنه (لو وقع تشبيه من تلك التشبيهات لموسوم بهذه الصناعة متخذ لها كالبضاعة بعد إعمال فكره فيه ، وإشغال ذهنه به لكان مستذكراً مستغرباً ، فكيف باجتماعها على حسنها ، وانطباعها له - أعزه الله - بهديهة) [2] .

وإذا كان أبو الوليد قد أدلج مع الذين لا يفرقون بين البديهة والارتجال فى الأندلس ، فإن من المفيد الإشارة إلى أن بعض النقاد الأندلسيين يذهب إلى التفرقة بينهما على خلاف السائد ، ومن هؤلاء أبن رشيق القيروانى الذى يرى أن البديهة تحتاج إلى شيء من الفكر ، والتأمل السريع فى حين أن الارتجال تنثال معه المعانى ، والقوافى منهمرة متدفقة دون انقطاع ، ويؤكد ذلك فى قوله : (البديهة عند كثير من

(١) المصدر السابق ١٤٥ .

(٢) المصدر السابق ٥٣ .

الموسومين بعلم هذه الصناعة فى بلدنا ، أو من أهل عصرنا هى الارتجال ، وليست به ؛ لأن البديهة فيها الفكرة والتأمل ، والارتجال ماكان انهماراً وتدفقا لا يتوقف فيه قائله كالذى صنع الفرزدق) (١) ، وكرر ابن بسام فى الذخيرة ماذهب إليه ابن رشيق فى مفهوم البديهة والارتجال (٢) ، وهذا المفهوم هو الذى توسع فيه ابن ظافر الأزدى فيما بعد حينما قرر فى كتابه بدائع البدائه (أن الارتجال هو أن ينظم الشاعر ماينظم فى أوحى من خطف البارق ، واختطاف السارق ، وأسرع من التماح العاشق ، نفوذ السهم المارق حتى تخال مايعمل محفوظاً ، أو مرئيا ملحوظا من غير حاجة إلى كتابة ، ولا تعلل بتقفية ، أما البديهة . فهى أن ينزل عن هذه الطبقة قليلاً ، ويفكر مقصراً لا مطيلاً ، فإن أطال ذو البديهة الفكرة انعكست القضية ، وخرجت من حد البديهة إلى حد الروية) (٣) على أن هذه النظرة إلى البديهة ، واعتبارها دليلاً على قوة الملكة ، وإبداعها وأصالتها ، وسرعة إسعافها فى المواطن الحرجة تعد من الأمور المتداولة بين بعض الأدباء والنقاد فى الأندلس ، فهذا ابن شهيد الأندلسى يقول (يتبين تقصير المقصر ، وفضل السابق المبرز إذا اصطكت الركب ، وازدحمت الحِلَق ، واستعجل المقال ، ولم توجد فسحة لفكرة ، ولا أمكنَتْ نظرةٌ لروية) (٤) ولا يعنى هذا أن البديهة محمودة فى كل مقام ، بل منها مايكون غثا ليس فيه بصيص من حسن أو جمال ، ومن العجيب أن يشير إلى ذلك ابن بسام فى معرض اعترافه بتدنى مستوى البديهة والارتجال فيما عرض له من الأشعار الأندلسية التى لا طائل تحتها ، والتى لم تستطع اللحاق فى هذا المضمار بالأشعار المشرقية لدى الأوائل يقول : (والبديهة والارتجال فى هذه الأشعار الاندلسية ، وإن لم تلحق بالأشعار المشرقية ، ولا فيها كبير طائل ، ولا تقرب مما ألصقته إليها من أشعار الأوائل ،

---

(١) العمدة (١٢٦/١) طبع بدر الدين الغسانى .
(٢) الذخيره القسم الرابع المجلد الأول ٣٦ .
(٣) بدائع البدائه ٨ .
(٤) الذخيرة القسم الأول ، المجلد الأول ٢٤٤ .

فهى نحوى فى هذا المجموع الذى انتحيت ، وطلقى الذى إليه جريت ، ولذلك ما أثبت مُذالها ومصونها ، وكتبت غثها وسمينها ، والأدب طريق يسلكها الصحيح والجَرِب ، وسوق ينفق فيها الدر والمخشلب) [١] .

٣ - الفنون الأدبية أو الأغراض الشعرية :

يبدو أن فن الوصف يعد من الفنون الأثيرة لدى الأندلسيين ، وقد أبدعوا فيه إبداعاً ظاهراً يتجلى فيما خلفوه من أثار شعرية يصفون فيها طبيعة بلادهم ، ويستجلون مباهجها ، ومفاتنها ومحاسنها التى تخلب الألباب جمالاً وروعة وبهاء إذ أن طبيعة بلادهم حدائق ذات بهجة ، وجنان غناء ، تفتح أمام شعرائهم آفاقاً فساحاً ، يسرحون فيها الطرف ، ويجيلون التأمل ، فيخرجون من ذلك بروائع الوصف ، وبدائع الصور ، واللوحات الجميلة ، مما أكسبهم شيئا من التميز على نظرائهم من شعراء المشرق ، وتوسع بعض أدبائهم فى أثبات هذا التمييز ، فاتخذ منه مجالاً للتفضيل والمفاخرة ، كما صنع أبو الوليد الذى ألف كتابه البديع ليحشد فيه ماوقف عليه فى وصف الربيع ، وأزهاره من أدب الأندلسيين شعراً ونثراً ، مع الإشادة بما لهم من إبداع ، واختراع ، وتشبيهات فائقة رائعة حسنة يتقون بها ماجاء فى شعر المشارقة فى هذا المضمار ، وكأنه يريد أن يشعرنا بتفوق الأندلسيين فى فن الوصف ولعل ذلك يعد من أبرز العوامل التى حفزته على تأليف كتابه ، والعناية بإيراد عبارات الإعجاب والاستحسان بما يذكره من مقطوعات شعرية تناسب موضوع كتابه ، ونكاد نلمس آثار ذلك فى كل صفحة من صفحاته ، ولا نعدم غالباً فى مستهل كل قطعة وصفية من عبارات الإعجاب والاستحسان ، فهناك الوصف البديع لأبى عمر يوسف بن هارون الرمادى فى وصف الربيع [٢] ، وهناك وصف ابن دراج للسوسن الذى

---

(١) الذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ٤٤ ، ٤٥ .

(٢) البديع ١١ .

أحسن فيه وأبدع وأغرب واخترع [١] ، وكذلك الشأن فى وصف أبى مروان عبد الملك بن جهور للنرجس الأصفر [٢] ، وقطعة أبى بكر بن القوطية فى وصف نور اللوز فائقة الوصف رائعة الرصف [٣] ، كما أشار إلى الوصف المطبوع الذى لم يعتوره شيء من التصنع ، أو التكلف فى تقديره ، وذلك حينما قال : (ولم يقع إلى فى نواره مفرداً إلا قول أبى عمر الرمادى ، وهو من الصفات المطبوعة والتشبيهات البديعة

انظر إلى روض ياسمين لم يَرِدِ الورد وهو وارد
كأنّــــه عِدةً ولونـــا أكف حور بلا سواعد[٤]

وجعل جودة الوصف مقياساً من مقاييسه فى الاختيار والانتخاب لما بين يديه فى مقطوعات شعرية حول الربيع وأزهاره كما يبدو من قوله : (قد اكملت من النواوير ماوقع إلىّ فيه الوصف الكثير ، وبقيت نواوير وقعت إلىّ فيها أوصاف يسيره ، وقطع قليلة ، ولكنى أذكرها على علاتها وأوردها منها ماحسنت تشبيهاته ، وجادت صفاته) [٥] ، وإذا كانت هذه العبارات ، أو الأحكام تعد من قبيل النقد التأثرى الفردى ، والتذوق إلا نفعالى إلا أنها تشعرنا بمقدرة الناقد على الإحساس بالجمال وتذوقه ، مما قد يثير فينا الإحساس نفسه ، ولا حرج على الناقد أن يلجأ لمثل تلك النظرات ، والأحكام إذا صدرت عنه مميزة واضحة المعالم والقسمات ، ومن الظواهر البارزة فى هذا المضمار أن أبا الوليد تعرض لفن المدح بشكل ينم عن ميوله وإعجابه بما درج عليه بعض الشعراء الأندلسيين من التجديد فى شكل القصيدة ومقدمتها ، وذلك باستبدال المقدمة الطللية المألوفة التى تصف الأطلال وما حولها بمقدمة روضية

---

(١) المصدر السابق ١٣٦ .

(٢) المصدر السابق ١١٩ .

(٣) المصدر السابق ١٥٠ .

(٤) المصدر السابق ٩٤ .

(٥) المصدر السابق ١٥٠ .

تصف الروض ، ومايتجلى فيه من مباهج الأشجار والأزهار ، والأنهار والأطيار ، ثم يخلص الشاعر من ذلك الوصف الى المدح ، وذكر مناقب الممدوح بشيء من الربط بينهما وبين مايتجلى فى الرياض من صفات الجمال والحسن ، ويتجلى اهتمام أبى الوليد بهذا المسلك فى حرصه على إيراد نماذج متعددة له ، مع الإشادة والإعجاب بها فى أكثر من موضع من كتابه البديع منها ماجاء فى الأبيات التى قالها أبو عمر بن يوسف بن هارون يمدح الوزير ابن بلشّر إذ يقول :

على روضة قامت لنا بدرانك ... وقام لنا فيها الذباب بمسمع
كأن السحاب الجون أعرس بالثرى ... فلاح شوارُ الأرض فى كل موضع
رياض يضاحكن الغزالة بعد ما ... بكت فوقها عين السماء بأربع
كأن سرور الأرض حُزْنُ سحابها ... إذا مابكت لاحت لنا فى تصنُّع
حبائب لا يسمحن إلا بلحظة ... وشمّة أنف للمحب الممتع
بدائع ما أهدى الوزير ببانه ... إلى صَكِّه إلا أتانا بأبدع

ويظهر أبو الوليد إعجابه بهذا المسلك فيقول : (شبه ممدوحه بالربيع فى حسن منظره ، وجمال مخبره ، ودخوله إلى المدح فى هذا الموضع مفضل له مستحسن منه) [١] وكذلك الشأن فى صنيع أبى عمر الرمادى الذى مدح ابن القرشية بأبيات منها :

تأمل بأثر الغيم من زهرة الثرى ... حياة عيون متن من قبل التنعم
كأن الربيع الطلق أقبل مهديا ... بطلعة معشوق إلى عين مغرم
وإن جئتها بالشمس والبدر والحيا ... مفاخرة جاءت بأسنى وأكرم
بعبد العزيز بن الخلائف والذى ... جميع المعالى ينتمى حيث ينتمى

ولم يفت أبو الوليد أن يلفت النظر إلى حسن تصرف الشاعر فى الانتقال من وصف الربيع والمفاخرة بين الأرض والسماء إلى المدح ، وربط ذلك بما سبق من معانى المدح ، وذلك حين يقول : (ودخوله فى هذا الموضع إلى المدح ، ومفاخرته بين السماء والأرض من المعانى التى سبق فيها ، واستولى على الأمد بها) [٢] .

---

(١) البديع ١٢ .
(٢) المصدر السابق ١٥ .

وكأنه يمثل بذلك الاتجاه المحافظ المجدد فى شكل القصيدة ومقدمتها عند الأدباء الأندلسيين حينما جنح كثير منهم إلى استهلال قصائد المدح بمقدمات يصفون فيها مظاهر الطبيعة بدلاً من المقدمات الطللية ، وقد أبدى ارتياحه لذلك أكثر من ناقد أندلسى غير أبى الوليد ، فهذا ابن حزم يفصح لنا فى أبيات له عن استهجانه لطريقة من يقفون على الديار ، ويتباكون على الدمن حين يقول :

خل هذا وبادر الدهر وأرحل   فى رياض الربى مطىّ القفار[1]
واحدها بالبديع من نغمات الـ   ـعود كيما تحث بالمزمار
إن خيراً من الوقوف على الدا   ر وقوف البنان بالأوتار
وبدا النرجس البديع كصب   حائر الطرف مائلا كالمدار
لونه لون عاشق مستهام   وهو لاشك هائم بالبهار

فابن حزم فى هذه الأبيات ينحو باللائمة على من يقفون بالديار والدمن من الشعراء ، ويفضل فى ذلك طريقة أخرى هى وقوف البنان بالأوتار ، ثم نراه يأخذ فى وصف بعض مظاهر الطبيعة من نرجس وبهار ، مما يشعرنا بالرغبة فى وصف مثل هذه المظاهر التى تضفى الأنس والسرور والانشراح على النفس بدلاً من وصف مظاهر الدمن والديار المقفرة ، ولكى لا يدع مجالاً لمن تسول له نفسه أن يتوهم فيه من خلال أبياته تلك أموراً لم تدر فى خلده نراه يلطف موقفه بشىء من الاعتذار فيقول معقبا عليها : (معاذ الله أن يكون نسيان مادرس لنا طبعاً ، ومعصية الله بشرب الراح لنا خلقا ، وكساد الهمة لنا صفة ...) ثم يؤكد إعجاب بعض السامعين بمسلكه فى أبياته السابقة فيقول : (ولقد أنشدتها بعض إخوانى من أهل الأدب ، فقال سروراً بها يجب أن توضع هذه فى جملة عجائب الدنيا) [2] .

---

(١) طوق الحمامة ١١٤ .
(٢) المصدر السابق ١١٤ .

٤ – الموازنات الأدبية :

جاءت الإشارة إلى الموازنات الأدبية عند أبى الوليد على صورتين : صورة تعتمد على شيء من الإيضاح أشبه مايكون بالموازنة المعللة التى انتهجها الآمدى من قبل أسلوباً له فى الموازنة بين الطائيين أبى تمام والبحترى ، وسجلها فى كتابه الموازنة الذى يعد كما يقول الدكتور إحسان عباس (قمة فى تاريخ النقد العربى بما اجتمع له من خصائص ، لا بما حققه من نتائج ، ذلك لأنه ارتفع عن سذاجة النقد القائم على المفاضلة بوحى من الطبيعة وحدها دون تعليل واضح ، فكان موازنة مدروسة مؤيدة بالتفصيلات التى تلم بالمعانى ، والألفاظ ، والموضوعات الشعرية بفروعها المختلفة) [1] ونجد هذه الصورة فى الموازنات عند أبى الوليد ماثلة فيما عقده لما وقع للنواوير من تفضيل وتغليب ، أو جرى بينها من تفاضل وتفاخر ، وأورد من ذلك قصيدة لأبى عثمان بن سعيد بن فرج الجيانى ، مطلعها [2] :

عنى إليك فما القياس الفاسد　　　إلا الذى أدى العيان الشاهد

وهو يرد بها على ابن الرومى فى قصيدته الدالية ومطلعها :

خجلت خدود الورد من تفضيله　　　خجلاً تورُّدها عليه شاهد

وبعد أن سرد أبو الوليد قصيدة الجيانى راح يوازن بين بعض أبياتها وأبيات أخرى من قصيدة ابن الرومى ، ونراه يميل إلى جانب الجيانى ، ويفضل ماجاء به على مايوجد عند نظيره مع شيء من الإيضاح للصورة لدى الطرفين تعزيزاً لموقفه فى الاستحسان والتفضيل ، ويبدو ذلك جليا فى تعقيبه على قصيدة الجيانى بقوله .
« قوله : ولمن يكون الفضل فى حكم العلا . البيت رد على قول : ابن الرومى :

شتان بين اثنين هذا مُوعِد　　　بتسلُّب الدنيا وهذا واعـد

ورد الجيانى عليه مقنع ، لأن الموعود به أجل من النذير الواعد عنه ، وقوله (يفنى خيار الناس) البيت رد على قوله :

---

(١) تاريخ النقد الأدبى عند العرب ١٥٧ .

(٢) البديع ٧٤ .

(٣) ديوان ابن الرومى (٦٤٣/٢) .

وإذا احتفظت به فأمتع صاحب ببقائه لو أن حيا خالـد

لأن البهار يبقى بنضرته أياماً ، الورد أسرع ذبولاً ، وقول الجياني (وجعلت للأسماء حظا زائداً) رد على ابن الرومي فى قوله :

اطلب بعيشك فى الملاح سميه أبداً فإنك لا محالة واجد

جعل من محاسنه التسمي به عندهم ، فنرجس فى أسمائهم كثير ، وذلك لاحجة له ولا عليه ، وقوله (لو أن فعلا للكواكب فى الثرى) الأبيات رد على بيتى ابن الرومى وهما :

هذى النجوم هى التى ربّتهما بحيا السحاب كما يربى الوالد
فانظر إلى الأخوين من أدناهما شبها بوالده فذاك الماجد

(شبه البهار بالنجوم) [(١)] :

أما الصورة الثانية من صور الموازنات عند أبى الوليد ، فهو يطلق فيها الحكم فى تفضيل نص على آخر لمجرد الاستحسان والإعجاب الذاتى الذى يصدر فيه غالباً عن ذوق شخصى ، وعباراته التى يطلقها فى مجال التفضيل توحى بذلك ، فمرة نراه يورد أبيات الشاعر ، ثم يتبعها بأخرى يحس بأنها أفضل ، وأحسن من سابقتها كما صنع حينما ذكر أبيات أبى عمر القسطلى ومطلعها :

أعاره النرجس من لونه تفضلا وازداد من طيبه

وجاء بعدها بأبيات أخرى لأبى الحسن بن على واستهلها بقوله : (وأحسن من هذا قول الفقيه أبى الحسن بن على) [(٢)] وذكر الأبيات .

وكذلك الشأن فى الأبيات التى ذكرها لأبى بكر عبادة بن ماء السماء ، ثم أورد بعدها أبياتا للفقيه أبى الحسن بن على وصفها بأنها (أحسن منها مجتلى ، وأطيب

---

(١) البديع ٧٦ .
(٢) المصدر السابق ١١٨.

مجتنى فى هذا المعنى) [1] وحينا يخرج بالتفضيل عن مجرد الاستحسان الى ماهو أبعد من ذلك إلى الإبداع والطبع ، فحينما ذكر لأبى بكر بن القوطية بديع ما أنشده إياه من قصيدة مطلعها :

ضحك الثرى وبدا لك استبشاره   وأخضر شاربه وطـــر عذاره

نجده يتبعها بأبيات له أيضا ويصفها بقوله (وأبدع من هذا وأطبع ما أنشدنيه أيضاً لنفسه) [2] ويلاحظ هنا أن المفاضلة لم تجر بين شاعرين ، وإنما جرت بين مقطوعتين مختلفتين قالهما شاعر واحد .

وتارة نراه يكتفى فى التفضيل بعبارة تشعر بارتياحه للمقطوعتين ، أو النصين لتلاقيهما ، وتشابههما فى الرقة والدقة على نحو ماحدث عند ذكره بيتين لذى الوزارتين القاضى ابن عباد فى وصف الياسمين ، ثم أتبعهما ببيتين آخرين له وصدرهما بقوله (ومما يوازيه دقة ، ويضاهيه رقة قوله) [3] ونجد مثل هذا أيضا فيما ذكره لأبى بكر ابن القوطية من أبيات مطلعها :

لما رأى العام زمان الربيـ   ـع الطلق قد نشّر عرف الكبا

ثم ذكر له قطعة أخرى قدّم لها بقوله : (ومما يوازى هذه القطعة رقة ويشاكلها دقة قوله ...) وذكر الأبيات [4] وفى مجال الموازنة بين نص وآخر فى بابه وموضوعه ووزنه وقافيته نقف لأبى الوليد على أحكام جريئة تتسم بالتعميم المطلق الذى يبتعد عن الموضوعية ، بل يجعل الحكم مرفوضاً غير مقبول ، ويتجلى ذلك فيما مهد به لأبيات أبى عبد الملك الطليق بقوله : قال أبو عبد الملك الطليق ، وهو مروان بن عبد الرحمن بن مروان بن عبد الرحمن الناصر لدين الله يصف الورد والبهار فى قصيد مشهور له لم يصنع بعده ولا قبله على عروضه وقافيته مايوازيه جمالاً ، ولا يضاهيه كمالاً ، والصف بعد صدر فى سواه :

---

(١) المصدر السابق ٢١ .

(٢) المصدر السابق ٢٥ .

(٣) المصدر السابق ٩٣ .

(٤) المصدر السابق ٢٥ .

وكأن الورد يعلوه الندى وجنة المعشوق تندى عرقا
يتفقى عن بهار فاقع خلته بالورد يطوى ومقا
كالمحبين الوصولين غدا خجلاً هذا وهذا فَرِقا
يالها من أنجم فى روضة قد ترقت من رباه أفقا
ودنت منها إلى شمس الضحى حَدَق للنور تصبى الحدقا (١)

ولا شك أن الصورة البيانية التى اشتملت عليها الأبيات فيها ملامح جمالية تدعو إلى الإعجاب ، وتستحق الإشادة غير أن أبا الوليد قد خرج فى وصفها عن حد الاعتدال والمعقول إلى المبالغة والمغالاة المرفوضة حينما زعم أنه لم يصنع مثلها من قبل ومن بعد ، وهنا نتساءل هل استقرئ أبو الوليد كل ماقيل فى هذا الباب من الشعر وأحاط به ، وإذا صح ذلك فيما قيل قبل تلك الأبيات فمن أين له الاستقراء لما لم يقل ، والحكم عليه .

٥ - الألفاظ والمعانى :

وفى هذا المجال نرى أبا الوليد يوجه ، ويقترح باستعمال بعض الألفاظ والصيغ لِيُستكمل بها المعنى وينجلى ، ويكون أكثر دقة ودلالة على اكتمال الصورة ، وذلك ينم عن مدى وعيه بالحاجة إلى استعمال الألفاظ الموحية والمعبرة عن الغرض ، فهو حينما ذكر أبياتا لأبى بكر بن نصر فى وصف نواوير عديدة استوقفه بيت منها هو قوله :

ومن نرجس نضر يروقك دره وياقوته السامى به وزبر جده

ولم يمر به دون أن يعلق عليه قائلا : (ومن نرجس يعنى البهار ، وصفته على ذلك دالة ، وياقوته السامى ، لو أمكنه أن يذكر لونه ، فيقول : المصفر ، أو نحوه لكان أتم إذ أن لوان اليواقيت كثيرة لكنه اكتفى بشُهدة الموصوف ، وهذا للشعراء

(١) المصدر السابق ٣٩ .

كثير) [1] ويشعرنا فى موطن آخر أن بعض الألفاظ قد يكون استعمالها مستحسنا فى موضع إذا استعملت مع مايناسبها ، وقد لا تكون كذلك فى موضع آخر ، فأبو الحسن بن على الفقيه عندما استعمل كلمة « قَضَفا » فى قوله :

شكت قَضَفاً بين النواوير فاتقت　　وجاءت إلى غدرانها تستبحيرها

كان موفقا فى نظر أبى الوليد إذ أن القَضَف بمعنى الرقة ، وهو تلميح مليح فى صحبتها الغُدُر ، وربما كانت فى غيرها) [2] وأحس أبو الوليد بحسن التصرف فى استخدام الألفاظ للدلالة على المعانى الدقيقة التى لا تبرز لأول وهله ، وإنما تدرك بشيء من التأمل ، فأبو عمر أحمد بن دراج القسطلى قد أحسن وأبدع وأغرب واخترع فى قوله يصف السوسن .

إن كان وجه الربيع مبتسماً　　فالسوسن المجتلى ثناياه
ياحسنه سِنّ ضاحك عبق　　بطيب ريا الحبيب رياه
خاف عليه الحسود عاشقه　　فاشتق من ضده فسماه

وسر ذلك مقدرة ابن دراج على استعمال الألفاظ المعبرة التى يتألف منها معنى دقيق إذ أن قوله : (خاف عليه الحسود ... البيت يعنى أنه سماه سوءاً وهو حسن خوف العين والحسد ، وهو تمليح مستحسن) [3] .

كما أشار إلى بعض المعانى المخترعة التى تثير إعجاب الأدباء والشعراء .

* * *

---

(١) البديع ٥٧ .
(٢) المصدر السابق ١٥٢ .
(٣) المصدر السابق ١٣٦ .

المبحث الرابع
كتاب البديع عرض وتحليل

١ - تمهيد حول المختارات الأدبية فى الأندلس :

لقد وجد الشعر فى بلاد الأندلس أرضا خصبة تحوطه بالرعاية والعناية منذ وقت مبكر ، ومع بداية الفتح الإسلامى سنة ٩٢ حيث كانت قرطبة مركزاً هاماً من مراكز إشعاع العلم والمعرفة ، وفى جامعها المشهور يلتقى العلماء والأدباء والشعراء من كل حدب وصوب ، وقد كان لذلك ثمار يانعة إذ كان التقاء الأدباء والعلماء من المشرق بالأندلسيين له أثر واضح فى تنمية الحركة العلمية والأدبية ولاسيما فى عهد عبد الرحمن الداخل وما أعقبه ، إذ بدأت تنشط الرحلة إلى المشرق للقاء العلماء والأدباء والرواة ، فمن ذلك أن أبا موسى عبد الرحمن بن موسى الهوارى رحل إلى المشرق ، والتقى فى العراق بالأصمعى ، وأبى زيد الأنصارى ، وغيرهما من الرواة ورجع إلى الأندلس [1] ومثله معاصره الغازى بن قيس (ت ١٩٩) الذى التقى فى رحلته إلى المشرق بالأصمعى ونظرائه ، وشهد تأليف مالك للموطأ ، وهو أول من أدخله إلى الأندلس [2] ، ولا شك أن اللقاء بمثل أولئك الرواة المشهورين للشعر كان له أثره فى تنشيط الحركة الأدبية وجانب الشعر منها على وجه الخصوص ، ولا يفوتنا فى هذا الصدد أن ننوه ببعض الحكام الأمويين فى الأندلس الذين كانوا يقرضون الشعر ، ويولعون به ، ولديهم اطلاع على دواوين القدامى من الشعراء ، ولهم صلات ومعرفة بمن عاصرهم من الشعراء العباسيين ، وقد اتسعت دائرة الاتصال بين الأدباء فى المشرق والأندلس فى أوائل القرن الثالث إذ نجد الأديب الشاعر عباس بن ناصح الثقفى (ت ٢٣٨) يتعرف بأبى نواس فى رحلته إلى المشرق ، ويجتمع به ، ويقر بفضله عليه [3] ، وكذلك رحل الأديب الشاعر عثمان بن المثنى القيسى (ت ٢٧٣) إلى المشرق ، ولقى

---

(١) بغية الوعاه (٢/٩٠) .

(٢) المصدر السابق (٢/٢٤٠) .

(٣) انظر المغرب (١/٣٢٤) والحلة السيراء (١/٨) وبغية الوعاة (٢/٢٨) .

جماعة من رواة الغريب ، وأصحاب النحو والمعانى ، وأخذ عن محمد بن زياد الأعرابى وغيره ، وقرأ على أبى تمام ديوان شعره ، وأدخله إلى الأندلس [1] ولا جرم أن مثل هذا الصنيع من علماء الأندلس يعد مؤشراً كبير الدلالة على حرص الأندلسيين وتعلقهم بالتعرف على آثار المشارقة من الشعراء ورواة اللغة والأدب ، ولابد أن الأندلسيين قد وعوا حركة الشعر وتدوينه لدى المشارقة بمناحيها المتعددة حيث عنى جماعة بجمع الأراجيز كالأصمعى ، واتجه آخرون إلى جمع ديوان شاعر بعينه ، أو شعر قبيلة بعينها ، واشتهر بذلك جمهرة من الرواة العلماء كأبى عمرو الشيبانى ، وأبى عبيدة معمر بن المثنى ، ومحمد بن حبيب ، ويعقوب بن السكيت ، وأبى العباس ثعلب ، وأبى سعيد السكرى ، وابن الأعرابى ، وأخذت المختارات الشعرية فى الظهور ، ولعل أقدم ماوصل إلينا منها تلك المجموعة التى عرفت بالمفضليات للمفضل بن سلمة الضبى المتوفى سنة (١٧٨) اختار فيها قصائد مطولة بلغت ستا وعشرين ومائة قصيدة لسبعة وستين شاعراً جلهم من الشعراء الجاهليين ، وقلة منهم مخضرمون وإسلاميون ، وحول محتواها دار نقاش طويل إذ المعتقد أن الأصمعى زاد فيها مما أدى إلى الاختلاط بين روايتى المفضل والأصمعى ، وقد قام محققا المفضليات بجهد واضح ملموس فى الكشف عن هذه الناحية الهامة [2] ، ثم وضع الأصمعى اختياره المعروف بالأصمعيات على غرار المفضليات ، ولم يمض زمن طويل إلا وبين أيدينا لون جديد من الاختيار يسير على تبويب الشعر حسب المعانى ، ويعتبر أبو تمام حبيب بن أوس الطائى رائد هذا اللون فى حماسته التى قسم فيها الشعر المختار على عشرة أبواب هى باب الحماسة ، فالمراثى ، فالأدب ، فالنسيب ، فالهجاء ، فالأضياف والمديح ، فالصفات ، فالسير والنعاس ، فالملح ، فمذمة النساء ، وقد فتح أبو تمام بذلك باباً جديداً فى الاختيار ، وسار على نهجه ، واقتفى أثره فيما بعد كثير من الأدباء والشعراء

---

(١) انظر تاريخ علماء الأندلس (٣٤٦/١) وبغية الوعاة (١٣٦/٢) .

(٢) انظر مقدمة المفضليات ١٠ ، ومابعدها ، وانظر كتاب مصادر الشعر الجاهلى ٥٧٥ .

الذين راحوا يؤلفون مختارات شعرية ، وحماسات على غرار حماسته [1] ، ثم تتالت المختارات الشعرية والنثرية ، ومن أبرز من جمع بين النثر والشعر كتاب البيان والتبيين للجاحظ (ت ٢٥٥) والكامل للمبرد (ت ٢٨٥) ، ولا ريب أن لهذه الحركة أثرها الواضح فى بلاد الأندلس ، ويتجلى لنا ذلك بشكل بارز فيما قام به ابن عبد ربه الأندلسى (ت ٣٢٧) حينما ألف كتابه الموسوعى العقد الفريد الذى مثل فيه أدب المشرق أصدق تمثيل حتى أن الصاحب بن عباد لما وصل إليه العقد وقرأه قال عبارته المشهورة (هذه بضاعتنا ردت إلينا ظننت أن هذا الكتاب يشتمل على شيء من أخبار بلادهم ، وإنما هو مشتمل على أخبار بلادنا ولا حاجة لنا فيه) [2] .

ولا ننسى أن نذكر صنيع أبى على القالى (ت ٣٥٦) الذى أملى من حفظه بقرطبة ، وفى المسجد الجامع بالزهراء كتابه الأمالى الذى صنعه على غرار كتاب الكامل للمبرد ، ونقل به قدراً كبيراً من أدب المشارقة إلى الأندلس ، وكذلك صنيع صاعد بن الحسن الربعى (ت ٤١٠) الذى ورد من المشرق إلى الأندلس فى أيام هشام بن الحكم ، وألف كتابه الفصوص على نحو كتاب النوادر لأبى على القالى [3] ولم يدم الأمر على هذا المنوال إذ نجد من أدباء الأندلس وعلمائها من يمثل تياراً آخر مضاداً لتيار العنايه بأدب المشارقة ، حينما راح كثير منهم يكرس جهوده للعناية بآثار أدباء الأندلس شعراً ونثراً ، والعمل على جمع شتاتها ومهما يكن من أمر فإن بلاد الأندلس أصبحت مرتعا خصبا وموردا ثراً للشعر والشعراء ، ونبغ منها فى مختلف العصور شعراء مجيدون ، واتجه بعض ملوك الأندلس إلى الشعر ، ومالوا إليه ، وأصبحوا محط أنظار الشعراء على نحو ما حدث من بنى عباد كما عرفنا ، ولم يغفل الأندلسيون عن آثارهم فى الشعر إذ قام بعضهم برصد حركة الشعر فى مؤلفات يترجم فيها

---

(١) انظر الحديث عن الحماسة مفصلاً فى كتابنا (حماسة أبى تمام وشروحها دراسة وتحليل) الطبعة الأولى .

(٢) معجم الأدباء (٢١٥/٤) .

(٣) جذوة المقتبس ٢٤٠ .

للشعراء الأندلسيين ، ويذكر نماذج من شعرهم ، كما صنع كل من عثمان بن ربيعة (ت ٣١٠) فى كتابه طبقات الشعراء بالأندلس [١] ، وعثمان بن سعيد حرقوص الكنانى فى كتابه شعراء الأندلس [٢] ، وأبى محمد قاسم بن نصير المعروف بابن أبى الفتح (ت ٣٣٨) فى كتابه الشعراء من الفقهاء بالأندلس [٣] ، وأبى محمد محمد ابن عبد الرؤوف الأزدى (ت ٣٤٣) فى كتابه شعراء الأندلس [٤] ، ومحمد بن هشام ابن سعد الخير (ت ٣٥٠) فى كتابه أخبار الشعراء بالأندلس ، وعبادة بن ماء السماء (ت ٤٢١) فى كتابه أخبار شعراء الأندلس [٥] وغير ذلك من المؤلفات التى تؤكد مدى حرص الأندلسيين على إبراز مالديهم من حصيلة ثرة من الشعر والشعراء ، كما تؤكد أن الأندلس قد قطعت شوطاً بعيد المدى فى هذا المضمار منذ بدايات الفتح الإسلامى إلى أواسط القرن الخامس الهجرى ، ولم تقف عناية الأندلسيين بآثارهم الشعرية عند هذا الحد بل إننا نجد من الأدباء الأندلسيين من أخذتهم النخوة ، والاعتزاز بآثارهم فى معترك الصراع والتنافس بينهم وبين المشارقة فعمدوا إلى انتخاب قصائد ومقطوعات شعرية لمجموعة من الشعراء الأندلسيين فقط ، تأتى غير مبوبة حينا ، ولا تخص غرضاً بعينه ، وتبوب أحيانا على عدة أغراض حسب المعانى ، أو قد تخصص لغرض واحد معين ، فمن الضرب الأول نجد ماقام به أبو محمد عبد الله بن محمد بن الصفار (ت ٣٥٢) حينما جمع فى مجلد واحد أشعار الأمويين بالأندلس بتكليف من الحكم الثانى ليكون بإزاء مختارات الصولى من أشعار بنى العباس [٦] ، ومن الضرب الثانى نجد كتاب الحدائق لأبى عمر أحمد بن فرج

---

(١) جذوة المقتبس ٢٨٦ ، ومعجم الأدباء (٣٢/٥) .

(٢) تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضى (٣٤٦/١) .

(٣) المصدر السابق (٤٠٦/١) .

(٤) المصدر السابق (٦٤/٢) .

(٥) جذزة المقتبس ٢٧٤ .

(٦) جذوة المقتبس ٢٣٥ ، وهدية العارفين (٤٤٦/١) .

الجيانى (ت ٣٦٧) وهو من المختارات الأندلسية المشهورة التى لم تصل إلينا ، ولا نعرف منه سوى مايتناثر فى بعض المصادر التى تنقل عنه ، وقد قصد من تأليفه إلى أن يكون مقابلاً لكتاب الزهرة الذى ألفه أبو بكر محمد بن داود الأصفهانى (ت ٢٩٦) غير أنه اقتصر فيه على أشعار الأندلسيين بخلاف صاحب الزهرة الذى شحن كتابه بأشعار المشارقة ، واشتمل كتاب الجيانى على مائتى باب فى كل باب مئتا بيت لشعراء أندلسيين فقط ، وأهداه للحكم المستنصر (١) ، على أن هذا الكتاب قد فتح باب الاختيار للأدباء الأندلسيين وأفاد كثير منهم مما جاء فيه من مادة شعرية ثرة لشعراء الأندلس ، ولعل أبا عبد الله محمد بن الحسين الكتانى (ت ٤٢٠) صاحب كتاب التشبيهات من أشعار الأندلس واحد منهم ، وربما صح ذلك على كتاب مماثل لمؤلف معاصر للكتانى هو أبو الحسن على بن محمد بن الحسين الكاتب (ت ٤٣٠) الذى ذكر له الحميدى كتاباً فى التشبيهات من أشعار أهل الأندلس (٢) ، وينقل عنه ابن الأبار فى أكثر من موضع ويسميه (الفرائد فى التشبيه من الأشعار الأندلسية) ولم يصل إلينا هذا الكتاب ، أما كتاب الكتانى فقد طبع بتحقيق الدكتور إحسان عباس ، وعرفنا منه أن الكتانى قد قسم كتابه على ستة وستين باباً ، ويتناول فى كل باب موضوعاً معينا يورد فيه نماذج من التشبيهات المختارة للشعراء الأندلسيين من ذلك مثلاً باب من التشبيهات فى السماء والنجوم والقمرين ، باب فى السماء والمطر ، باب فى الربيع والزهر ، باب فى الورد ، باب فى الحسن ، باب فى البكاء ، باب فى الشتاء والصقيع ، باب فى السراب ، باب فى السيوف ، باب فى الحرب ووصف الطعان والضراب والجيوش والفتوح ، باب فى الجود ، باب فى الثقلاء ، باب فى الشيب والهرم ، باب فى ذم الدنيا ، وذكر الموت ، وغير ذلك من

---

(١) انظر حول كتاب الحدائق : جذوة المقتبس ١٠٤ ، ١٠٥ ، وفضائل الأندلس لابن حزم ١٦ والذخيره القسم الأول المجلد الأول ٢ ، ١٣ ، ونقل عن ابن حزم أنّ مؤلفه أحسن الاختيار ماشاء ، وأجاد فبلغ الغاية .

(٢) جذوة المقتبس ٢٩٠ .

(٣) الحلة السيراء (٢٢٤/١ ، ٢٣٢ ، ٢٦٠) .

الأبواب ، وتأتى أهمية كتاب الكتانى التشبيهات من حيث إنه يعد من أوفى المجموعات الشعرية التى تشمل الفترة الواقعة مابين عصر بنى أمية حتى أواخر الفتنة البربرية إلى حوالى سنة ٤٢٩ على وجه التقريب ، وهى فتره مهمة فى تاريخ الأدب الأندلسى لم يصلنا من داودين شعرائها سوى النزر اليسير ، وماعدا ذلك فليس لدينا سوى قصائد ومقطوعات وأبيات متناثرة فى كتب الأدب والموسوعات الأدبية .

أما الضرب الثالث من المختارات التى تمحضت لغرض واحد معين فنجد من أبرزها كتاب البديع فى وصف الربيع للكاتب الوزير الشاعر أبى الوليد إسماعيل بن محمد بن عامر الحميرى الملقب بحبيب العامرى الأشبيلى (ت ٤٤٠) وسيأتى الحديث مفصلاً عنه فى موضعه ، ويبدو أن أبا الوليد لم ينفرد بالتأليف فى هذا الموضوع بل نجد هناك من سبقه ، أو لحقه فألف على غراره من مثل كتاب حديقة الارتياح لأبى عامر محمد بن عبد الله بن مسلمة (ت) ذكر فيه ما مثل فى الرياض والبساتين والنواوير [١] وأشار المقرى فى نفح الطيب إلى كتاب فى الأزهار والأنوار رآه واطلع عليه ونقل عنه ولم يذكر اسم مؤلفه [٢] .

٢ – عنوان الكتاب ونسبته إلى مؤلفه :

النسخة المطبوعة من الكتاب فى طبعتها الأولى بعناية هنرى بيريس عام ١٣٥٩ جاءت تحمل اسم (البديع فى وصف الربيع) ويبدو أن المخطوطة الوحيدة للكتاب ، والمحفوظة فى مكتبة الأسكوريال ليس فيها أثر لصفحة العنوان ، وربما سقطت منها هذه الصفحة ، إذ أن الصورة التى بين أيدينا عنها ليس فيها شىء من ذلك بل بدأت مع الورقة الأولى التى تحمل مقدمة المؤلف والتى لم نجد فيها إشارة صريحة عن اسم الكتاب سوى مايدل على موضوعه وهو وصف الربيع ، ومافيه من

(١) جذوة المقتبس ٦٥ .

(٢) نفح الطيب (٨٥/٣) .

أزهار وانوار ، غير أن فى آخر المخطوطة وردت عبارة (تم كتاب البديع فى وصف الربيع بحمد الله وعونه) وفى ثناياه جاءت عبارة مماثلة أيضا حينما قدم المؤلف لبعض المقطوعات بقوله (ومن البديع فى وصف الربيع) ولعل ذلك هو ماحمل الناشر إلى أن يضع هذا الاسم عنوانا للكتاب ، غير أننا نجد له اسماً مشابهاً فى المصادر التى أشارت إليه إذ ذكرته باسم (البديع فى فصل الربيع) وفى تقديرى أن العنوان الأولى هو العنوان المناسب ويترجح عندى ذلك للأسباب التاليه : -

١ - ماورد فى آخر المخطوطة من الأشارة إلى اسم الكتاب على أنه البديع فى وصف الربيع .

٢ - العبارة التى وردت فى ثنايا الكتاب ، والتى توحى بهذا العنوان وهى قول المؤلف فى التقديم لبعض المقطوعات (ومن البديع فى وصف الربيع) مختارات من الشعر والنثر فى وصف الربيع ومظاهره ، ويبدو ذلك من ترديد مايوحى باستهداف الوصف فى مستهل مقدمته للكتاب حين قال فى معرض الأشادة بالربيع ومباهجه (وفصل الربيع آرج وأبهج ، وآنس وأنفس وأبدع وأرفع من أن أحد حسن ذاته ، وأعد بديع صفاته) وقال أيضا (وهو مع هذه الصفات الرائعة والسمات الشائعة والآلات الفائقة لم يعين بتأليفه أحد ، أو انفرد لتصنيفه منفرد)

ومن الثابت أن الكتاب لأبى الوليد اسماعيل بن محمد بن عامر الحميرى الأشبيلى ، فقد تواتر ذكره فى جل المصادر الأندلسية المعتبرة مسنداً إليه على أنه من تأليفه كما جاء عند كل من الحميدى فى جذوة المقتبس ١٦٢ ، وابن بسام فى الذخيرة القسم الثانى المجلد الأول ١٢٥ ، والضبى فى بغية الملتمس ٢١٣ ، وابن سعيد فى روايات المبرزين ٣٩ ، وفى المغرب (١/ ٢٥٠) وابن الأبار فى التكمله لكتاب الصلة (١/ ١٨٠) والحلة السيراء (١/ ٢١٠) والمقرى فى نفح الطيب (٨/ ٤٢٧) .

٣ - سبب تأليف الكتاب ومضمونه وموضوعه :

من عنوان الكتاب ومقدمته يطهر لنا أن المؤلف قصد به إلى أن يكون ضرباً

من المختارات الشعرية والنثرية فى موضوع بعينه ، وهو فصل الربيع ، ومايرفل به من مظاهر الجمال فى أزهاره ، وأنواره الفواحة بأطيب أريج ، والمبهجة والمؤنسة لكل نفس ، وقد لاحظ المؤلف تعلق الأندلسيين ، وهو واحد منهم بطبيعة بلادهم ، وماتعج به من مظاهر الجمال والروعة فى حدائقها الغناء ، وجنانها الفيحاء التى أكسبتهم رقة المشاعر والأحاسيس ، وغرست فى نفوسهم حب التنزه فى البساتين والحدائق للتمتع بما فيها من روائع الزهور ، والأنوار التى تثير فى ذوى المواهب المرهفة الإحساسَ بالجمال ، فيجرى الشعر على ألسنتهم عذبا سائغا ، يصفون ما شاهدوه من مجالى الربيع فى طبيعة أرضهم الخصبة الفاتنة ، وكان لهم من ذلك نصيب وافر من الأدب الرفيع ، والشعر البديع ، غير أن العناية لم تتجه إلى جمع شتاته فى مؤلف مستقل ، مما دفع أبو الوليد إلى أن يقوم بهذه المهمة ، ويفصح عن ذلك بقوله : (فإن أحق الأشياء بالتأليف ، وأولاها بالتصنيف ماغفل عنه المؤلفون ، ولم يعن به المصنفون ، مما تأنس النفوس إليه ، وتتلقاه بالحرص عليه ، وفصل الربيع آرج ، وأبهج ، وآنس وأنفس ، وأبدع وأرفع من أن أحُدّ حسن ذاته ، وأعد بديع صفاته ... وهو مع هذه الصفات الرائقة ، والسمات الشائقة ، والآلات الفائقة لم يعن بتأليفه أحد ، ولا انفرد لتصنيفه منفرد ، فلما رأيت ذلك جمعت هذا الكتاب مضمنا ذلك الباب) [1] ، وإذا تابعنا المؤلف فى المقدمة يتبين لنا أمور أبرزها :

١ - أن الدافع الذى سبقت الإشارة إليه لم يكن هو الدافع الوحيد لتأليف الكتاب بل هناك دافعان آخران ، أحدهما وأهمهما أن المؤلف قصد بكتابه إبراز مواهب الأدباء الأندلسيين ، ومقدرتهم الفائقة فى مجال الشعر والنثر ، ولا سيما مايخص وصف مظاهر الطبيعة حيث لهم فى ذلك روائع لا تجارى ، ولا يلحقهم فيها لاحق أو سابق من أدباء المشرق حسب تقديره ، وهو بذلك يدلى بدلوه فى معترك التنافس بين أدباء المشرق والأندلس ، حيث كان تيار الدعوة إلى تحديد الذات

---

(١) البديع ٣ .

الأندلسية ، وإثبات شخصيتها قائما على أشده فى عصر المؤلف لدى بعض الأدباء وهو واحد منهم ، ولعله لهذا قصر كتابه على أدباء الأندلس وحدهم دون غيرهم ، وبالغ فى اعتقاده بتفوقهم فى هذا الباب على غيرهم من أدباء المشرق ، وعبر عن ذلك بقوله:(ولست أودعه إلا ما أذكر لأهل الأندلس خاصة فى هذا المعنى إذ أوصافهم لم تتكرر على الأسماع ، ولا كثر امتزاجها بالطباع ... ، وأما أشعار المشرق فقد كثر الوقوف عليها ، والنظر إليها حتى ماتميل نحوها النفوس ، ولا يروقها منها العلق النفيس مع أنى أستغنى عنها ، ولا أحوج إليها بما أذكره للأندلسيين من النثر المبتدع ، والنظم المخترع ... ولأهل المشرق فى تأليف أشعار شعرائهم ، وتدوين أخبار علمائهم الفضل علينا ، والسبق لنا ، حتى لقد يجمعون خشينها مع حسنها ، ويضيفون لحنها إلى لحنها ، لا قلة ميز بها ، بل تحرجاً عن تركها ، ولو جرى أهل الأندلس على تلك الطريقة لأوردت على الحقيقة أمثال ما أوردت ، وأضعاف ما اجتلبت ، لكن أهل المشرق على تأليفهم لأشعارهم ، وتثقيفهم لأخبارهم منذ تكلمت العرب بكلامها ، وشغلت بنثرها ونظامها إلى هلم جرا لا يجدون لأنفسهم فى التشبيهات فى هذه الموضوعات ما وجدته لأهل بلدى) [1] ، ولاشك أن فى ذلك شيئا من المغالات ، والمبالغة الواضحة البينة ، ويلاحظ هنا أن أبا الوليد لم ينس فى غمرة الإعجاب بالأندلسيين أن يشير فى مقدمة كتابه إلى جهود أهل المشرق فى جمع أشعارهم ، وتدوين أخبار علمائهم ، واعترف لهم بالفضل ، والسبق فى ذلك ، غير أنه لم يكن راضياً عن طريقتهم التى حرصوا فيها على جمع كل مايصادفهم من غث وسمين فى تقديره ، وليس ذلك عن قلة تمييز ، وإنما حرصاً على الإحاطة فى الجمع ، ولو أراد أن يسلك هذا المسلك لجاء بأضعاف مضاعفة لما أورده ، واختاره من شعر الأندلسيين ونثرهم ، ثم جمح القلم بأبى الوليد ، وأخذه التعصب لأبناء جنسه إذ نفى أن يلحق بهم أديب أو شاعر فيما لهم من تشبيهات وموضوعات فى الربيع منذ أن تكلمت العرب بكلامها ، وشغلت بنثرها ونظامها .

---

(١) البديع ٤ .

وأما الدافع الآخر فيظهر فى رغبة أبى الوليد فى التقرب إلى ذى الوزاتين القاضى ابن عباد ، وابنه الحاجب ، وإشباع رغبتهما وميولهما إلى مثل هذا اللون من الأدب لما عرف عنهما من حب وتقدير وتشجيع للأدب والأدباء ، فقد أرجع إليهما الفضل فى صنيعه حين قال : (الفضل فى هذا الصنع الجميل لذى الوزارتين القاضى الجليل المنقطع المثيل ، ولابنه الحاجب الشهاب الثاقب نثره عباد ، ورحمة الله على العباد مولىّ وسيدَىّ أبقاهما الله ستراً علىّ ، فهما اللذان أقامت مُقْعدَ الهمم يدُ اهتبالهما ، وأمطرت أرض الفطن سماء أفضالهما فدرت الدرر من تلك الفكر التى يسعيان لتحصين مرادهما ، وتحسين مرادهما ... ، ولولاهما أطال الله بقاءهما ، وأدام اعتلاءهما ما انفردت لهذا التأليف ، ولاشغلت فكرى بهذا التصنيف ، ولا منيت نفسى به) [1] ، وإذا انتقلنا من المقدمة إلى مضمون الكتاب نجد أن المؤلف فيما يتعلق بوصف الربيع لم يقتصر على المختارات الشعرية فقط ، بل أورد فيه مختارات فى النثر أيضا ، غير أن الشعر كان له النصيب الأوفى ، ذلك لأن المؤلف قد أورد من الشعر مايقرب من أربعين ومئتى مقطوعة (٢٤٠) فيما يقرب من عشرين وأربعمائه وألف بيت من الشعر (١٤٢٠) لمجموعة من شعراء الأندلس من أبرزهم : الوزير أبو عامر ابن مسلمة والقاضى ذو الوزارتين أبو القاسم محمد بن عباد ، وابنه إسماعيل بن محمد ابن عباد الحاجب ، وذو الوزارتين أبو عمرو بن عباد ، وأبو الحسن بن على الفقيه ، وأبو بكر بن القوطية ، وأبو جعفر بن الأبار ، وأبو عمر بن يوسف بن هارون الرمادى ، وابن عبد ربه الأندلسى ، وأبو عامر المنصور بن أبى عامر ، وابن دراج القسطلى ، ويحيى بن هذيل ، وعبادة بن عبد الله بن ماء السماء ، وأحمد بن محمد ابن فرج الجيانى أبو عمر ، وعبد الملك بن سعيد المرادى ، وأبو مروان بن عبد الملك ابن إدريس الجزرى ، وأبو على إدريس بن اليمانى ، وعامر بن شهيد ، وعبد الملك بن شهير ، وأبو الأصبغ عيسى بن قزمان ، وابن هانئ الأندلسى ، ومن هؤلاء الشعراء من تردد ذكره كثيراً فى الكتاب حيث اختار لهم المؤلف مقطوعات متنوعة فى مواطن

---

(١) المصدر السابق ٥ .

متعددة من كتابه مثل الوزير أبى عامر بن مسلمة الذى تردد ذكره سبعاً وعشرين مره ، وتردد ذكر كل من أبى الحسن بن على الفقيه أربعاً وعشرين مرة ، وأبى بكر بن القوطية ثلاثا وعشرين مرة ، وأبى جعفر بن الأبار ثمان عشرة مرة ، وأبى عمر يوسف ابن هارون الرمادى عشر مرات ، ولا ننسى كل من القاضى ذى الوزارتين أبى القاسم محمد بن عباد الذى تردد ذكره سبعاً وعشرين مرة ، وابنه إسماعيل بن محمد بن عباد الحاجب تردد ذكره اثنتى عشرة مرة ، وأبى عمرو بن عباد تردد ذكره أربع عشرة مرة ، وهذه المواطن غالباً ما يرد فيها ذكر هؤلاء مع بعض المقطوعات التى قيلت من أجلهم ، أو فى مدحهم ، وأقل من ذلك يرد ذكرهم مقرونا بمقطوعات من إنشائهم .

وأما النثر فلم يكن له ما كان للشعر من حظ ونصيب وافر إذ لم نجد منه سوى أربع عشرة رسالة ، أو قطعة نثرية منها رسالة لذى الوزارتين القاضى ابن عباد ، وأخرى لأبى إسحاق بن الحمام ، ورسالتان لعمر بن هشام ، ومثلهما لأبى الوليد العثمانى ، ورسالتان أيضا لكل من أبى مروان عبد الملك بن إدريس الجزرى ، وأبى حفص أحمد ابن برد واحدة منهما رسالة خيالية بديعة مطولة فى المفاضلة بين الزهور شغلت نحواً من سبعة وثمانين سطراً ، وأربع رسائل للمؤلف أبى الوليد منها رسالة خيالية مطولة صاغها على غرار رسالة أبى حفص أحمد بن برد ردًّاً على ماجاء فى رسالته فى تفضيل الورد على البهار وسائر الأزهار ، وهى تعد أطول رسالة فى الكتاب حيث شغلت منه ما يقرب من عشر صفحات ، ونحو خمسة وخمسين ومئة سطر [1] ، وقد جاءت المقطوعات الشعرية والنثرية التى اشتمل عليها الكتاب لتصف مدحاً – وهو الغالب – أو قدحاً – وهو القليل – مجموعةً من الزهور والأنوار وهى مرتبة على حروف الهجاء (الآس ، والأقحوان ، الباقلاء ، البهار ، الجلنار ، الحزم ، والخيرى الأصفر ، والخيرى النمام ، والسوسن أو السوسان ، والشقائق ، والشفيق ، والظيّان ، والورد ، والنرجس الأصفر ، والنسرين ، ونور الرمان ، ونور الغالية ، ونور

---

(١) سبق الحديث عن هذه الرسالة ودراستها فيما ذكر عن أبى الوليد الكاتب .

الكتان ، ونور اللوز ، والنيلوفر ، والورد والياسمين ، وأكثر هذه الأزهار والأنوار دورانا فى الكتاب هو البهار حيث تردد ذكره فى اثنين وعشرين موطنا ، ثم النرجس الأصفر فى واحد وعشرين موطنا ، ثم الخيرى الأصفر فى سبعة عشر موطنا ، ومثله البنفسج ، فالأقحوان فى ستة عشر موطنا ، فالسوسن فى أربعة عشر موطنا ، فالخيرى النمام فى ثلاثة عشر موطنا ، فالورد فى عشرة مواطن ، فالياسمين فى ثمانية مواطن ، فالنيلوفر فى خمسة مواطن ، وهذا يعكس لنا كثرة ماقيل فى هذه الأزهار من شعر ونثر ، ثم يفصح عن مدى الميل من الأدباء إليها والعناية بوصفها لما يتجلى فيها من محاسن وجمال يستوجب ذلك ، وربما كان لتوفر بعضها عن بعض دخل فى هذه العناية ، وذلك الاهتمام .

وفى خاتمة الكتاب نبه المؤلف إلى أنه لا يدعى الإحاطة بكل ماقيل فى موضوعه ، بل إنه اجتهد فى التقصى ، ولايزال الباب مفتوحاً للمستزيد ، وحسبه أنه أول من ولج هذا الباب ، وأورد منه كل بديع ورفيع ، وإذا كان فيما أورده ماينقص عن ذلك ، ويتوجه إليه النقد فهو يعلمه ولا يجهله ، وإنما تغاضى عنه لندرته وقد عبر عن ذلك كله فى نهاية كتابه بقوله : (هذا ما عثرت عليه وانتهيت البحث إليه ، وإن وقع إلىّ بعدُ وصف رائق ، أو معنى فائق ألحقته فى هذا الكتاب ، ووضعته بموضعه من كل باب ، والبشر غير معصوم ، ومن بذل جهدَ نفسه فليس بمذموم ، وحسبى أنى قد جمعت من غرائب الأندلسيين ونوادرهم ، وأوردت من فضائلهم ومآثرهم مايمكن أن يتغمد به ، ويصفح من أجله عما عرض من زلل ، أو وقع من خطل ، فربما أدخلت لأهل عصرى مايقرب فى البديع ، ولايبعد عن الرفيع فمن نقد ذلك فليعلم أنى لم أجهله ، وإنما تحفظتُ من ناظميه ، وأغضيت لهم على مافيه ، وليس ذلك إلا فى أبيات يسيرة ، وصفات غير كثيرة) .

ويبدو من هذا أن أبا الوليد لم يحاول محاولة جادة فى توجيه النقد لما يورده من نصوص شعرية ونثرية بإبراز الوجه الآخر الذى يفصح عن بعض العيوب والأخطاء الفنية ، بل اكتفى بجانب الإعجاب والاستحسان واستجلاء مظاهرها ، ولعله لجأ إلى

ذلك لاعتقاده أنه تخير من النصوص مايقرب من البديع ، ولا يبعد عن الرفيع ، وإذا كان هناك شيء من العيوب فهو يسير لا يستوجب التنويه فى تقديره .

على أن الكتاب حافل بمادة أدبية ثرة من شعر ونثر لفن من فنون الأدب برع فيه الأندلسيون براعة ظاهرة ، وهو فن الوصف ، وقد حوى الكتاب بين دفتيه نصوصاً قيمة فى هذا الجانب تفتح أمام الباحثين فى الأدب الأندلسى آفاقا فساحاً ، ومنافذ جديدة لدراسة هذا الأدب الذى لا يزال بحاجة إلى المزيد من التأمل والدرس .

٤ - منهج الكتاب وأبرز سماته وملامحه الأدبية :

الذى يتأمل الصفحات الأولى من الكتاب يحس أن أبا الوليد يتطلع منذ البداية إلى وضع المنهج السليم الذى ينبغى أن يسير عليه هو وغيره من المؤلفين حينما وجه بقوله : (قال أبو الوليد إسماعيل بن عامر من الصواب فى الدواوين ، والحذق فى التواليف أن يضاف المثل إلى مثله ، ويقرن الشكل بشكله ، فيقصد الطالب أى معنى شاء فيجد مقصده ، ويعتمد القارىء أى فصل أراد فيلقى معتمده) [١] فهو هنا يهدف إذاً إلى شيء من التنظيم ، والتنسيق لمادة الكتاب على أساس واضح بين يعتمد على تصنيف المادة فى فصول ينحصر كل واحد منها فى جانب معين تتماثل وتتجانس فى داخله المادة المعروضة تسهيلاً للباحثين ، ومن هذا المنطلق قسم كتابه إلى ثلاثة فصول أشار إليها بقوله : (وهذا الباب كثير الفصول غزير الفروع والأصول ، على قلة الوصف له ، والقول فيه ، لكننى رددته إلى ثلاثة فصول ، وقصرته عليها ، وقيدته بها ، فالفصل الأول : القطع فى الربيع التى لم يسم فيها نور ولا قصد بوصفها منه نوع ، الفصل الثانى : القطع التى لم تنفرد بوصف نور بل اشتملت على وصف نورين أو أنوار ، والفصل الثالث فى القطع المنفردة كل واحدة منها بنور على حدة) [٢] ، ويعد الفصل الأول أقل فصول الكتاب مادة حيث بدأ به وانتهى عند

---

(١) البديع ٦ .

(٢) المصدر السابق ٦ .

ص ٣٥ ، ويليه الفصل الثانى الذى جاء أكبر من سابقه بدأ من ص ٣٥ – ٨٩ ، أما الفصل الثالث فهو أكبر فصول الكتاب ، وأوفرها خطأً من صفحاته بدأ من ٨٩ – ١٦٣ ، ويبدو أن أبا الوليد أراد أن ينهج نهجاً محدداً فى ترتيب الأزهار داخل الفصل الذى خصصه لما قيل فى نوع بعينه من الزهور والأنوار ، غير أن ملامح هذا النهج لم تتحدد عنده تماماً فهو حينما يؤكد على ضرورة البدء بأول الأنوار ، وأبكر الأزهار ، وهو نور البهار نراه يتراجع فيرى تقديم غيره أو تأخيره لاعتبارات أخرى منها :

١ – استمرار بعض الأنوار وبقاؤها على مدار الفصل مما يستوجب تقديمها على الحقيقة كالآس ، والياسمين لذا بدأ بهما ، ووعد بالعودة إلى مبدأ التقديم على أساس زمنى من حيث التبكير فى الظهور ، وعبر عن ذلك فى مطلع هذا الفصل بقوله : (يجب أن نبدأ بأول الأنوار ، وأبكر الأزهار ، وهو من النواوير الربيعية نور البهار ، ولكن ماكان من النواوير باقيا فى كل وقت ، وثاوياً مع كل فصل هو أول على الحقيقة ، وصدر فى هذه الطريقة كالآس والياسمين ، فنبدأ بهما ، ثم نذكر النواوير على أزمنتها) (١) .

٢ – قلة ماقيل من الوصف لبعض النواوير المبكرة مما يستوجب تأخيرها وإن كان حقها التقديم على الاعتبار الأول بالنظر إلى زمن الظهور المبكر للأزهار لذلك أخر « نور اللوز » عن غيره ، وعلل ذلك بقوله : (كاد أن يكون أبكر النواوير ، وأول الأزاهير ، ولم أعامله بالتأخير إلا لقلة الوصف له) (٢) وفى بعض المواطن قد لا يضطرد هذان الاعتباران عند المؤلف – وأعنى بهما اعتبار بقاء الأنوار على مدار الفصل ، واعتبار قلة الوصف – إذ يجد نفسه أحيانا مدفوعاً إلى سلوك النهج العام الذى أفصح عنه فى مطلع الكتاب ، وهو أن يضاف المثل إلى مثله ، ويقرن الشكل بشكله ، كما حدث فى الياسمين البستانى الذى قدمه لاستمراره وبقائه على مدار

---

(١) المصدر السابق ٨٩ .

(٢) المصدر السابق ١٥٠ .

الفصل غير أنه ألحق به الياسمين البرى ، وهو الظيّان ، فى حين أن من حقه التأخير لكونه ليس ممايبقى طوال العام ، أو ممن كثر وصفه ، وإنما لجأ إلى ذلك لما بين النوعين من تماثل وتشابه انطلاقا من اعتقاده بضرورة ضم كل مثل إلى مثله ، وصرح بذلك حين قال : (قال أبو الوليد : هذا ماوقع إلى فى الياسمين البستانى ، وعثرت على قطع من الياسمين البرى ، وهو الظيّان ، وليس يبقى مدة العام ، إنما هو ربيعى ، ولكن قدمته على الربيعية لتسميته باسم المتقدم ، وانتسابه به ، فوصلت ذكره بذكره ، وماقيل فيه مما قيل فيه مع أن وصفه لم يكثر ، وذكره لم يتكرر ، فليس يحتمل إفراداً ، وإنما يجب أن يكون لهذا تبعاً ، وخلق شجره ، ونوره كخلق البستانى ، لأن نوره أصفر) (١) .

على أن هناك ملامح وسمات عامة تتعلق بمنهج الكتاب ، وطريقة المؤلف فى تناول مادته ومضمونه يمكن إلقاء الضوء عليها فيما يلى :

١ - أن المؤلف اعتمد كثيراً على التلقى المباشر لما أورده فى كتابه من مقطوعات شعرية إما عن طريق مايمكن تسميته بالإنشاد الشخصى من أفواه الشعراء أنفسهم حيث نجد بعض المقطوعات مصدرة بمثل قوله (وأنشدنى لنفسه أيضا أبو الحسن (٢) ، أو ومن المصنوع المطبوع فى وصف الربيع ما أنشدنيه لنفسه أبو القاسم البلميى ، أو وأنشدنى لنفسه فيه الفقيه أبو الحسن (٣) بن على ، وغير ذلك من العبارات التى تشعر بالتلقى المباشر عن طريق السماع بالإنشاد ، وهناك صورة أخرى لهذا التلقى صرح فيها بصيغة السماع حين عقب على أبيات لذى الوزارتين القاضى بن عباد بقوله : (قال أبو الوليد سمعت أبى وأبا الأصبغ يقولان : والله ما أكمل إملاء الأبيات بتلك التشبيهات الرائقة ، والصفات الرائعة إلا ونحن قد بهتنا من سرعة بديهته) (٤) ، وهذه الصورة تجرنا أيضا إلى صورة أخرى هى التلقى عما

(١) المصدر السابق ٩٧ .
(٢) المصدر السابق ٥٤ .
(٣) المصدر السابق ١١٠ .
(٤) المصدر السابق ٥٢ .

يلقى على البديهة سماعاً ، ويسجل إملاء عليه فى المجلس ، ويذكرنا هذا بما كان يحدث فى مجالس الإملاء والاستملاء المعهودة لدى العلماء المسلمين فى عصور العلم الزاهية حتى ألفوا فى آدابه الكتب كما صنع السمعانى حينما ألف كتابه أدب الإملاء والاستملاء ونجد من ذلك عند أبى الوليد فيما صدر به ثلاث مقطوعات لذى الوزارتين القاضى ابن عباد فى وصف الياسمين إذ قال فى الأولى : (أبدع ماقيل فيه وأبزغ ماشبه به ، وأرفع ما أملّ علىّ لنفسه فيه ذو الوزارتين القاضى حرس الله حوباءه ، وصان ذكاءه) (١) ، وقال فى الثانية ، ومما يوازيه دقة ، ويضاهيه رقة قوله أمله على أبقاه الله ، وقال فى الثالثة : وأمل أعزه الله ، وأحسن ذكراه على فيه له قطعة قوية الوصف ، سرية الرصف وهى) (٢) وقد لايكون الإملاء مباشراً له ، وإنما بواسطة آخر هو والده ، ويظهر هذا مما مهد به لأبيات قالها القاضى بن عباد تعقيبا على أبيات أنشدها أبو الأصبغ ، وجاء فيه قوله : (ولما أكمل أبو الأصبغ إنشاد هذا الشعر أمر القاضى أعزه الله والدى عبده الناصح له دأبه الحسن فيه ظاهره وغيبه بالجلوس بين يديه ثم أملّ بديهة عليه) (٣) .

٢ - يتثبت مما يقال فلا يذكر غالباً إلا ماصح عنده كما يبدو فى تمهيده لأبيات ابن دراج القسطلى حين قال فى إثنائه : (صح عندى أن عبادة بن ماء السماء كان يقول : لم يخترع بالأندلس فى معنى من المعانى كاختراع القسطلى فى السوسان) (٤) .

٣ - يبدو أن أبا الوليد قد جعل من أسس الاختيار عنده الاقتصار على الجزء الذى يتعلق بموضوعه من القصيدة ، وحذف ماعداه مما لايتناسب مع غرضه وهدفه فى الكتاب ، فالقصيدة التى قالها ابن دراج القسطلى واشتملت على وصف للسوسن

---

(١) المصدر السابق ٩٣ .
(٢) المصدر السابق ٩٤ .
(٣) المصدر السابق ٥٢ .
(٤) المصدر السابق ١٣٦ .

لم يوردها كاملة ، وإنما اقتصر منها على مايتصل بهذا الغرض ، وأفصح عن ذلك فى التمهيد لها بقوله:(ولأبى عمر أيضا فيه وصف ثان معدوم المثال موسوم بالجمال ... ، وهو فى قطعة مطولة كتب بها إلى المظفر بن أبى عامر أنا ذاكر منها ماتشبث بذكر السوسن من المستحسن) [١] ، وكذلك الشأن فيما مهد به لأبيات أبى جعفر بن الأبار يصف الورد قائلا :(فأحسن إحسانا يقرب على متأمليه ، ويبعد عن متناوليه ، وصف الورد بعد صدر متقدم من الشعر) [٢] وهذا يعنى أن هناك أبياتا سابقة لماذكره تغاضى عنها لعدم تعلقها بموضوعه وقد يضع ذلك فى النثر أيضا ، فقطعة ذى الوزارتين القاضى بن عباد جاء فى التمهيد لها مايوحى بحذف جزء منها ، والاكتفاء بما يتناسب مع غرضه حين أشار إلى ذلك بقوله (والقطعة بعد صدرها) ، وكذلك الشأن فى قطعة أخرى للوزير الكاتب أبى حفص بن برد [٣] ، غير أن هذا المسلك قد لايضطرد فى كل حال إذ ربما أعوزته بعض النصوص إلى خلافه ، ولاسيما فى النثر ولا يترك الأمر دون أن يفصح عن الموقف الطارئ ، ومادفعه إليه ، فحينما أورد رسالة لعمر بن هشام لاحظ خروج ماجاء فى آخر الرسالة عن غرضه بما اشتملت عليه من وصف الكؤوس ، وسرور النفوس ، ولكنه لايجد مناصاً من ذلك إذ لو فصل هذا الجزء عن الرسالة لاختل سياقها ، بل يرى أن بعض الأشياء يزداد حسنها بما وصلت به ، جاء ذلك فى تعقيبه على الرسالة المذكورة بقوله (قال أبو الوليد فى آخر هذه الرسالة من وصف الكؤوس ، وسرور النفوس بمن خوطب فيها ، وكتب بها مالم أعد به ، ولا قصدت قصد ذكره لكنى لوفصلته منها لأخللت بها ، فمن الأشياء أشياء يزداد حسنها بما وصلت به ، وقرنت معه ، وربما أن فى كتابى مثل هذا ، فمن رآه فليعلم أنى إنما أسعى فى استكمال الحديث ، واستيعاب الخبر لئلا أخل بما ابتدئ به بالنقص منه) [٤] وفى ذلك ملحظ دقيق من المؤلف يشير به إلى أن بعض النصوص

(١) البديع ١٣٦ .

(٢) وانظر أيضا المصدر السابق ١٣٠ .

(٣) وانظر أيضاً المصدر السابق ص ٣٤ حيث أشار إلى الاستغناء عن صدر رسالة له .

(٤) المصدر السابق ٩ .

عند الاختيار لا تقبل التجزئة ، بل هى كل متكامل ، ولا يبرز جمالها إلا بإيرادها على هذا النحو الذى لا يخل بتناسقها ، وانسجام معانيها التى يأخذ بعضها بحجر بعض ومن هنا نجد أن أبا الوليد لم يتمكن بشكل دقيق وكامل من تطبيق مبدأ الاختيار لما يناسب غرضه من القصائد والمقطوعات الشعرية كما نوّه فى بعض المواطن ، وإن تمكن من ذلك أحيانا ، فقد يغفل عنه حينا ، وها هو يذكر لصاحب الشرطة أبى بكر بن القوطية قصيدة كاملة موصولة بمدح ذى الوزارتين القاضى ، وينص على ذكرها من أولها إلى آخرها (١) ، ويشيع عند أبى الوليد فى معظم كتابه مايقرب من ذلك حينما يذكر بعض المقطوعات موصولة بمدح بعض الوجهاء ، وأصحاب الحكم والرياسة (٢) ، ولعله بمثل هذا الصنيع لا يبتعد كثيراً عن غرضه إذ أن ماجاء به من المدح موصولاً بالأبيات التى يذكرها فى وصف الربيع وأزهاره ، إنما هى وثيقة الصلة بهذا الوصف ، وتمثل براعة بعض الشعراء فى الانتقال من الوصف إلى المدح ، وتجديدهم فى نمط القصيدة حيث اتجهوا إلى بدء قصائدهم بمقدمات وصفية ، يصفون فيها مظاهر الطبيعة من ربيع وأزهار ونحوها ، ثم ينتقلون إلى غرضهم بشكل محكم يربط السابق باللاحق خروجاً على ماكان مألوفاً لدى بعض الشعراء ، ولاسيما فى المشرق من الالتزام بالمقدمات الطللية ، كما سبق أن عرفنا فى الحديث عن جانب النقد لدى أبى الوليد ، ولا ننسى أن نذكر فى هذا المقام أن أبا الوليد قد جعل نصب عينه فى مجال الاختيار أن يختار من النصوص شعراً ونثراً مايبدو فيه الاختراع الفائق ، والابتداع الرائق ، وحسن التمثيل والتشبيه ، وماهو من أغرب التشبيهات ، وأعجب الصفات ، وأبرع الأبيات ، وأبدع الكلمات على حد قوله فى مقدمة الكتاب .

٤ – درج على أن يصدر كل مقطوعة بتمهيد لها يذكر فيه غالباً اسم القائل ، والغرض الذى قيلت من أجله ، مع بعض العبارات التى تحمل الإعجاب

---

(١) البديع ٧٦ .

(٢) انظر مثلا كتاب البديع ١٩ ، ٢١ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٤٤ ، ٥٦ .

والاستحسان ، كما يعقب على بعض المقطوعات موضحاً بعض الجوانب التى تحتاج إلى إيضاح من مثل الإفصاح عن معانى بعض الأبيات كما نرى فى تعقيبه على أبيات ابن القوطية فى وصف السوسن ، ومنها قوله :

وفوقهــا رقيبــة منها لها محترسهْ
نابلـــة رامحة سائفه متــرّسهْ
كان اسمها نَسُوس لا كِنْ قرئت منكّسهْ

ومثل هذه الأبيات تشتمل فى تقدير المؤلف على معان تحتاج إلى إيضاح لذلك أخذ فى إيضاحها وشرحها بقوله : (قوله : وفوقها رقيبة . يعنى القائمة وسط السوسنة ، نابلة : ذات نبل ، جعل التى تحدق بالرقيبة فى أسفلها نبلاً ، وجعل أيضاً منها رمحاً فى قوله : رامحة ، وسائفه يحتمل أن يجعل الوشائع الصفر التى حول الرقيبة سيوفاً ، ويحتمل أن تكون السيوف الأوراق البيض ، ومترّسة : ذات تُرس ، ولاشك أنه من الأوراق البيض ، وقوله : نَسُوس : أراد مستقبل فعل الساسة وهو مليح فيه معنى التنويه) [1] وفى بعض المواطن يعقب مبديا رأيه ، أو ذكراً بعض مايتعلق بالمقطوعة مما يستوجبه المقام من لمحات أدبية ، أو نقدية تشتمل على تقويم لبعض الأبيات ، أو موازنة ومقارنة بين بعضها مما سبق بيانه فى الحديث عن جانب النقد عند أبى الوليد ، وقد يكون التعقيب لتفسير بعض الألفاظ اللغوية التى تحتاج إلى تفسير وشرح لمعناها على نحو ماصنع فى تعقيبه على أبيات أبى بكر بن القوطية فى وصف الورد والسوسن حيث عقب عليها قائلا : (قوله : على الورد الذى فغما : أى الذى سدت ريحه الخياشيم ، وقوله : الذى نجم : أى الذى طلع ، والطُلْية : صفحة العنق وهى واحدة الطلى ، ولغة ثانية فى الطُلْية : طُلاة ، ونُصّتْ : رُفِعَتْ ، وجرى على هذا النهج فى مواطن عديدة من كتابه) [2].

---

(١) المصدر السابق ١٣٨ .

(٢) انظر مثلاً ص ١٢ ، ١٥ ، ٢٥ ، ٢٩ ، ٥٠ ، ٧٣ ، ٩٠ ، ١٣٨ ، ١٥٩ .

٥ - أهمية الكتاب وقيمته فى دراسة الأدب الأندلسى :

يمكن أن نتلمس أهمية كتاب البديع وقيمته فى دراسة الأدب الأندلسى فيمايلى :

١ - أن الكتاب ضم بين دفتيه مجموعة قيمة من الشعر الأندلسى فى أزهى عصوره عصر ملوك الطوائف لأبرز الشعراء الأندلسيين عموماً ، وشعراء إشبيلية على وجه الخصوص ، وبعضهم لم تصل إلينا دواوينهم سوى ماتناثر لهم من شعر فى المصادر الأندلسية ، ومنها كتاب البديع الذى اشتمل لبعض الشعراء على مجموعة كبيرة من الشعر قلّ أن توجد فى غيره من مثل أبى بكر بن القوطية الذى لم يصل إلينا ديوانه ، وحفظ له صاحب البديع مايقرب من ٢٣ قطعة ، ومن مثل أبى جعفر ابن الأبار ، وأبى الحسن بن على الفقيه وغيرهم .

٢ - فى الكتاب نصوص للون بديع من ألوان الكتابة فى الأندلس يتمثل فى الكتابة الوصفية التى برع فيها الأندلسيون مما قد لا يتوفر فى غيره من المصادر ، ومن أبرز ماجاء فيه من هذا القبيل رسالة أبى حفص بن برد فى المفاضلة بين الزهور ، وتفضيل الورد [١] عليها ، ورسالة المؤلف أبى الوليد التى رد فيها على رسالة أبى حفص ، ومال فيها إلى تفضيل البهار على الورد وسواه من الأزهار ، وقد تناولنا هذه الرسالة بالدراسة فى الحديث عن أبى الوليد كاتبا .

٣ - أن الكتاب اشتمل على نصوص ومقطوعات ، وقف عليها المؤلف عن طريق التلقى المباشر من السماع لها بواسطة الإنشاد ، أو القول على البديهة ، وتسجيلها إملاء من أفواه قائليها ، كما أن منها ماقيل فى مناسبات وقتية تخص المؤلف ، أو فى مراسلات بينه وبين أدباء عصره ، من ذلك مثلاً ماكان بينه وبين أبى الوليد بن العثمانى الذى بعث له بخيرى ، ومعه قطعة نثر ، فأجابه بمثلها [٢] ، ومثل هذه النصوص والمقطوعات قد تكون مما انفرد به المؤلف .

---

(١) انظر البديع ٥٧ .

(٢) انظر البديع ١١٣ ، ١١٦ ، ١١٧ .

٤ – يعد الكتاب مصدراً أساسيا لدارسى الأدب الأندلسى بصورة عامة ، وما يتعلق منه بوصف الطبيعة بصورة خاصة حيث يعد أحفل مصدر ، وأوفى مورد ، بل منبع ثر لمثل هذا اللون فى الأدب .

٥ – يعد الكتاب من أهم المصادر لدراسة مؤلفه أبى الوليد إسماعيل بن محمد ابن عامر ، وهو أحد علماء الأندلس وأدبائها ونقادها المرموقين ، بل يكاد يكون المصدر الوحيد الذى حوى أكبر قدر من المعلومات التى تلقى الضوء على جوانب من حياته الشخصية ، والعلمية ، والأدبية ، إلى جانب ماحفل به من مقطوعات شعريه ونثرية للمؤلف نفسه الذى لم يصل إلينا عنه سوى ماذكره فى كتابه ، وتناقلته عنه بعض المصادر الأندلسية الأخرى .

٦ – طرح المؤلف فى كتابه بعض القضايا والآراء والأقوال ، واللمحات التى تدخل فى نطاق النقد الأدبى [١] ، ولاشك أنه يعد بذلك من المصادر اللازمة للباحثين فى هذا المضمار ، حيث يقفون فيه على مادة تعينهم على تحديد ملامح وتيارات النقد الأدبى فى الأندلس خلال عصر ملوك الطوائف ، أو فى القرن الخامس على وجه التحديد .

* * *

---

(١) انظر حول ذلك ماسبق أن تحدثنا به عن أبى الوليد ناقداً .

فهـــرس المصادر والمـــراجع

١ – الأدب الأندلسى من الفتح إلى سقوط الخلافة : للدكتور أحمد هيكل ، الطبعة السادسة – دار المعارف بمصر ١٩٧١ م .

٢ – إشبيلية فى القرن الخامس الهجرى . دراسة أدبية تاريخية : للدكتور صلاح خالص – دار الثقافة بيروت ١٩٦٥ م .

٣ – أعمال الأعلام – للسان الدين بن الخطيب : بتحقيق ليفى بروفنسال ، طبع بيروت دار المكشوف ١٩٦٥ ، وتحقيق الدكتور أحمد مختار – طبع الدار البيضاء المغرب ١٩٦٤ .

٤ – إنباه الرواة على أنباه النحاة – لجمال الدين القفطى (ت ٦٤٦ هـ) : تحقيق محمد أبى الفضل إبراهيم – مطبعة دار الكتب المصرية – ١٩٥٢ – ١٩٥٥ م .

٥ – بدائع البدائه – لعلى بن ظافر (ت ٦١٣ هـ) : تحقيق محمد أبى الفضل إبراهيم – القاهرة ، مكتبة الأنجلو المصرية ١٣٩٠ هـ .

٦ – البديع فى وصف الربيع – لأبى الوليد إسماعيل بن محمد بن عامر بن حبيب الحميرى (ت ٤٤٠) بتحقيق الدكتور عبد الله عبد الرحيم عسيلان – الطبعة الثانية ، مطبعة المدنى ١٤٠٧ هـ .

٧ – بغية الملتمس فى تاريخ رجال أهل الأندلس : لأحمد بن يحيى الضبى (ت ٥٩٩ هـ) الطبعة الأوربية الأولى ١٨٨٤ م .

٨ – بغية الوعاة – جلال الدين السيوطى (ت ٩١١ هـ) تحقيق محمد أبى الفضل إبراهيم ، القاهرة – طبع عيسى البابى الحلبى ١٣٨٤ هـ .

٩ – بنو عباد بإشبيلية : للأستاذ عبد السلام أحمد الطود – الطبعة الأولى تطوان المغرب ١٣٦٥ هـ .

١٠ – البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب – لابن عذارى المراكشى . تحقيق ليفى بروفنسال – دار الثقافة ، بيروت .

١١ – تاريخ الأدب الأندلسى عصر الطوائف والمرابطين : الدكتور إحسان عباس بيروت دار الثقافة ١٩٦٩ م .

١٢ – تاريخ علماء الأندلس : لأبى الوليد عبد الله بن محمد الفرضى (ت ٤٠٣ هـ) الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٦ م
١٣ – تاريخ النقد الأدبى عند العرب : للدكتور إحسان عباس – دار الأمانة ، ومؤسسة الرسالة ، بيروت ١٣٩١ هـ
١٤ – تاريخ النقد الأدبى فى الأندلس – للدكتور محمد رضوان الداية بيروت دار الأنوار – الطبعة الأولى ١٣٨٨ هـ
١٥ – التكملة لكتاب الصلة – لأبى عبد الله محمد بن عبد الله القضاعى المعروف بابن الأبار (ت ٦٥٩ هـ) عنى بنشره وصححه : السيد عزت العطار – مطبعة السعادة بمصر ، الطبعة الأولى ١٣٧٥ هـ .
١٦ – جذوة المقتبس فى ذكر ولاة الأندلس : لأبى عبد الله محمد بن أبى نصر الحميدى (ت ٤٨٨ هـ) الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٦ م .
١٧ – الحلة السيراء – لأبى عبد الله محمد بن عبد الله القضاعى المعروف بابن الأبار (ت ٦٥٨ هـ) تحقيق الدكتور حسين مؤنس – الشركة العربية للطباعة والنشر ١٩٦٣ م .
١٨ – حماسة أبى تمام وشروحها – دراسة وتحليل : للدكتور عبد الله عبد الرحيم عسيلان – الطبعة الأولى بمطبعة عيسى البابى الحلبى بمصر ١٣٩٨ هـ
١٩ – دول الطوائف من قيامها حتى الفتح المرابطى : محمد عبد الله عفان مكتبة الخانجى بالقاهرة الطبعة الثانية ١٣٨٩ هـ
٢٠ – ديوان ابن الرومى : تحقيق الدكتور حسين نصار – القاهرة مطبعة دار الكتب المصرية ١٣٩٣ هـ .
٢١ – ديوان الشافعى : جمعه نعيم زرزور – دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤٠٤ هـ .
٢٢ – الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة – لأبى الحسن على بن بسام الشنترينى (ت ٥٤٢ هـ) تحقيق الدكتور إحسان عباس – بيروت دار الثقافة ، الطبعة الأولى ١٣٩٩ هـ .

٢٣ - رايات المبرزين وغايات المميزين - لعلى بن موسى بن محمد بن سعيد الأندلسى (ت ٦٨٥ هـ) تحقيق الدكتور النعمان عبد المتعال القاضى القاهرة ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٣٩٣ هـ .

٢٤ - الروض المعطار فى خبر الأقطار - لمحمد بن عبد المنعم الحميرى : تحقيق الدكتور إحسان عباس : بيروت دار القلم ١٩٧٥ م .

٢٥ - الصلة - لأبى القاسم خلف بن عبد الملك بن بشكوال (ت ٤٩٤ هـ) الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٦ م .

٢٦ - طوق الحمامة - على بن أحمد بن حزم (ت ٤٥٦ هـ) تحقيق حسن كامل الصيرفى القاهرة - المكتبة التجارية .

٢٧ - العمدة فى صناعة الشعر ونقده - لأبى على الحسن بن رشيق القيروانى (ت ٤٦٣ هـ) بتصحيح محمد بدر الدين النعسانى - الطبعة الأولى ، مطبعة السعادة ١٣٢٥ هـ

٢٨ - فضائل الأندلس - ضمن رسائل ابن حزم الأندلسى : تحقيق الدكتور إحسان عباس - القاهرة مكتبة الخانجى ، ومكتبة المثنى ببغداد .

٢٩ - مصادر الشعر الجاهلى وقيمتها التاريخية للدكتور ناصر الدين الأسد - الطبعة الرابعة دار المعارف بمصر ١٩٦٩ م .

٣٠ - معجم الأدباء - لياقوت بن عبد الله الحموى (ت ٦٢٦ هـ) الطبعة الأولى .

٣١ - المفضليات - للمفضل بن سلمة الضبى الكوفى (ت ١٧٨ هـ) تحقيق الأستاذين أحمد محمد شاكر ، وعبد السلام هارون - الطبعة الرابعة دار المعارف بمصر .

٣٢ - نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب - أحمد بن محمد المقرى التلمسانى : تحقيق الدكتور إحسان عباس - بيروت ، دار صادر ١٣٨٨ هـ .

٣٣ - نهاية الأرب فى فنون الأدب - أحمد بن عبد الوهاب النويرى (ت ٧٣٣ هـ) النسخة المصورة عن طبعة دار الكتب المصرية .

٣٤ - هدية العارفين بأسماء المؤلفين وآثار المصنفين - لإسماعيل بن محمد بن أمين البغدادى (ت ١٣٣٩ هـ) تصوير مكتبة المثنى بغداد .

* * *

الدراسة حول أبى الوليد ومواهبه الأدبية وكتابه البديع

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة
٩ – السرقة	٢٦
١٠ – شعر الغزل	٢٧
١١ – الموسيقى والأوزان	٢٨
ثانيا – أبو الوليد الناثر	
أ – تمهيد وعرض	٢٩
ب – خصائص وسمات نثر أبى الوليد	٣٤
١ – التضمين	٣٥
٢ – العناية بالأمثال والحكم	٣٧
٣ – القيم الأخلاقية والإنسانية	٣٧
٤ – التشخيص	٣٨
٥ – استعمال الجمل الدعائية والمعترضة	٣٩
٦ – الأسلوب القصصى	٤٠
٧ – المحسنات البديعة	٤٢
٨ – الألفاظ	٤٣
ثالثا – أبو الوليد الناقد	
أ – تمهيد حول النقد فى الأندلس	
قبل بى الوليد وفى عصره	٤٥
ب – المعالم والقضايا النقدية	
عند أبى الوليد	٤٨
١ – الصور البيانية والتشبيهات	٤٨
٢ – البديهية والارتجال	٥٤
٣ – الفنون الأدبية أو الأغراض الشعرية	٥٧
٤ – الموازنات الأدبية	٦١

* * *

القسم الثاني

تحقيق كتاب

البديع في وصف الربيع

مخطوطة الكتاب

لا يوجد لمخطوطة كتاب « البديع فى وصف الربيع » حسب علمى سوى نسخة واحدة فريدة محفوظة فى مكتبة الأسكوريال بأسبانيا ، وقد جاءت النسخة خلواً من صفحة العنوان ، وهى ماعدا ذلك تامة ، وليس فيها خرم سوى بعض الكلمات القليلة التى سقطت وبقى مكانها فارغاً ، واستهلت الورقة الأولى بمقدمة المؤلف التى جاء فى صدرها : (بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على محمد وآله وسلم تسليما ، قال أبو الوليد إسماعيل بن محمد بن عامر رحمه الله ، أما بعد حمد الله على فضله المتناهى ، والصلاة على خاتم رسله ، وناهج سبله ، فإن أحق الأشياء بالتأليف ..) وختمت النسخة بقول المؤلف : (هذا ماعثرت عليه وانتهيت البحث إليه ، وإن وقع إلى بعد وصف رائق أو معنى فائق ألحقته فى هذا الكتاب) وتلى ذلك عبارات التختيم وهى : (تم كتاب البديع فى وصف الربيع بحمد الله وعونه ، وصلى الله على محمد خيرته من خلقه ، وعلى أهله وسلم تسليما) وفى هذه العبارات نلاحظ النص على عنوان الكتاب الذى لم نقف عليه فى صفحة العنوان أو فى مقدمة الكتاب ، وأثبت ماجاء فى الخاتمة عنوانا للكتاب لاعتبارات سبق الحديث عنها ، وقد كتبت النسخة بخط أندلسى جلى واضح ، وبحرف كبير نوعاً ما ، وميزت العناوين وعبارات البدء بخط عريض ، وعدد أوراقها حوالى تسع وثلاثين ورقة ، وكل وجه من وجوه الورقة يشتمل على ثمانية عشر سطراً ، وفى كل سطر مايتراوح بين ثمان أو تسع أو عشر كلمات فى الغالب ، تميزت النسخة بميزة ظاهرة وهى ضبط أبيات الشعر بالشكل الذى يكاد يكون تاماً مع ضبط كثير من كلمات النثر ، كما تميزت بالاتقان والضبط ، وقلة التصحيف والتحريف ، ولا ندرى على وجه التحديد متى نسخت ، ومن قام بنسخها إذ لم نجد إشارة إلى ذلك فى خاتمة النسخة ، ويبدو من خطها أنه قديم ، وربما تكون منسوخة فى القرن السابع أو الثامن تقديراً .

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على محمد وآله وسلم تسليما

قال أبو الوليد إسماعيل بن محمد بن عامر رحمه الله

الحمد لله على فضله المتناهي والصلاة على خاتم رسله وتحية [illegible] [illegible] الأدباء بالتأليف [illegible] للتصنيف [illegible] عن جمعه [illegible] المصنفين [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] وأنقص [illegible] الآداب [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

قال أبو الوليد فلما رأيت ذلك جمعت [illegible]

مقطعات [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] الأزهار [illegible] [illegible] [illegible] المعنى إذ [illegible] تكرر على الأسماع [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] أهل بلدهم [illegible] وغفلتهم عن [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

الوجه الأول من الورقة الأولى

شعر جيبين الاخرون الاوائل لا يعيب في كثيرها وزاد
فيه عن نحورها ونعمر بدا من هذه العلة بما يحتمل استعمالها
واخرى استحسانها واستغرابها وأما اشتغال اهل هذه
بمعرفة الوقوف عليها والنظر اليها حتى ما يميل نحوها الجو
ولا يرون منها العلو ... مع اني استغني عنه ولا احوج
المنابه الذي ... للاثر ... من النثر المنترع والنظم المخترع
واكثر ... اهل عصر الذي ... نوادرهم عند ...
من يعرف ... وفيهم من جليل قدره ... اوردت فيه شيئا
للعلة التي تعرفه ... من ... تصحيحها ولا غرابة و
... لهم ... شعر ... وتزويد ... علمائه البعض
عليها والسبيل لنا حتى لقد يجمعون حسنها مع حسنها وبصيرة
انها ... لاهل ... بما الحرج ... والوجري ...
الا ... على ... الاقرب ... وردت على خمسين ... اما اوز
واضعاف ... اختلفت لان اهل ... وعلى ...
وتنبيهه لاخبارهم ... تكلم العرب بكلامها ...
... ان ... الاخرون الاسم ...
... الموصوف ... وجرت ...
عن ... بالعلة التي ذكرتها ...

الوجه الثانى من الورقة الأولى

عند الاذكياء متبحرا الاسلام وحب منتحل الكلام ولو

أخذوا عن هذه الابيات المستبشرة وتأملوه وعرضوا وتفهموا

عن هاهم بحلل جمع وتبره لكانوا أحقاء بالتلوين

[illegible] فليه يري فضائله ومستداح أحسن المعاني

عند النسبة فحسنة وهو الذي تضمنه من كلام

قلته فيه من الاختراع البديع والابتداع الرائق وحسن

[illegible] والتشبيه [illegible] [illegible] و [illegible]

في من صنع الحميري الوزير [illegible] خير [illegible]

[illegible] الاشعار [illegible] من [illegible]

[illegible] موسى [illegible]

[illegible] منتعر [illegible] وامر

أرى التحسين [illegible] الرتب [illegible]

التي تشتغل وتحصر [illegible] وتحسين [illegible] وتأمل

[illegible] تأمل البيعة المتفرد والتمييز المتفرد ترى

ترى غرب التشبيهات وأعجب الصفات وأبدع الابيات و

أبدع الكلام [illegible] من [illegible] ومعدل

عنهم ومنصوب بين ايديهم ومتورط على [illegible] واما

ذلك لتراكب اختلافهم وتعاقب اتفاقهما و[illegible]

الوجه الأول من الورقة الثانية

الذي نبه الاسماع وبعث ذوي الاعلام لفكر واعمل النظر
ونظرا في وجوههما درر من الكلام لا تنظم على سلكها غير
الايام وكنتُ احببتُ بفعلهما جملا من الجمال تبقي بقاء الليالي فاليه
خرجتها من ملكين نفقا سوق الادب الكاسدة واصلحا حال
تعلم البائسة وحثا المتحلين له والمتحلين به ولولا اسمهما اطال
الله بقاءهما ولذا اعتلاءهما ما انفردت لها في تاليف ولا
شغلت فكري بما تضمنه ولا تبينت نفسي به ولا وقفت
بما في ترتيبه لا كن تفضلهما الكريم وعلمهما الشهير لا
السيء وعلمت كيف اقول جزاهما الله عن ابواب من
الادب ذي عضد نسيبه قد اكمنا وقد بلغت القلوب حنجره
وشعارت الحروب خدمه وكشف الثوب عن اثوابه واذاك
الادب واعتنيا به بعد هاجر اياه جوزي وضرمه بن محو منامه
ونفرا عن استيعاب جهلها وعلمهما واستعمال جميل
ابعادهما ونعوذ الى ما وعدنا به وتحقيق ما تبيننا على اجلاله
وبالله ذي الجلال والاكرام العون على البر والتمام

باب ما جاء في الربيع والانوار من المربع الحمارة

قال ابو الوليد اسمعيل بن
عامر من الصواب في الرواية والعزو في التواليف ان يظرف

[illegible] في [illegible] وكانت أول رحلة العصفر

منزلة [illegible] الرمان [illegible] لا [illegible] منظر [illegible] لا [illegible]

منظر بلا [illegible] زيادة أنه لا يعفر كما يعفر عن الرمان قال أبو الوليد

ولي [illegible] فقطعة [illegible] وأوقفت [illegible] [illegible] منبتة ومن

[illegible] [illegible] [illegible] حلا [illegible] أحلا حلا من جميع الأنوار والأزهار خزود

حتى [illegible] فرأيت [illegible] [illegible] بالقرب الأحلام في الأبصار

جار [illegible] [illegible] منفصل وما [illegible] [illegible] [illegible] ولا [illegible] [illegible]

[illegible] قال أبو الوليد [illegible] [illegible] [illegible]

عليه وانضمت [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

[illegible] غير مختصر ومن أجل [illegible] [illegible] [illegible]

[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] من

[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] غير [illegible]

[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

[illegible] ولا يبعد عن الربيع فمن [illegible] قبل [illegible] أي لم أجمله

[illegible] [illegible] من [illegible] [illegible] لهم على [illegible] وليس [illegible]

الا [illegible] [illegible] غير [illegible] والله المستعان على التوفيق

[illegible] [illegible] [illegible]

تم [illegible] الربيع في وصف الربيع بحمد الله وعونه [illegible]

والصلاة على [illegible] [illegible] وعلى آله [illegible]

الوجه الأول من الورقة الأخيرة

[illegible]

الوجه الثاني من الورقة الأخيرة

النسخة المطبوعة

طبع كتاب البديع فى وصف الربيع أول ماطبع عام ١٣٥٩ هـ - ١٩٤٠ م فى مدينة الرباط بالمغرب ضمن مطبوعات معهد العلوم العليا المغربية وعنى بنشره وتصحيحه عن النسخة الوحيدة الموجودة بمكتبة الأسكوريال الأستاذ هنرى بيريس المدرس بجامعة الجزائر ، وخرج الكتاب فى ثمان وتسعين ومائة صفحة مع الفهارس التى وضعها للكتاب وهى فهرس الموضوعات ، وفهرست أسماء الرجال ، فهرست أسماء الأماكن ، وفهرست أسماء الأنوار ، وفهرست القوافى ، استغرقت الفهارس من صفحات الكتاب مايقرب من سبع وثلاثين صفحة .

غير أن ناشره لم يبذل فيه أى جهد يذكر سوى بعض الفهارس التى لم يلتزم فيها الدقة وحسن التبويب والترتيب والتنسيق ، وهى أوضح شيء بذل فيها جهده كما يبدو ومع ذلك فاته فيها قدر لابأس به مما يجب ذكره فى هذه الفهارس مما هو واضح نحو « إشبيلية » التى لم يرد لها ذكر فى فهرس الأماكن ، ونحو « حبيب بن عامر - أبو المؤلف » الذى لم يرد له ذكر فى فهرست الرجال وغير ذلك ، ولا نجد مع هذا الجهد فى الفهارس سوى بعض التعليقات النادرة جداً التى لو جمعت من الكتاب كله لا تُكَوّن أكثر من صفحة واحدة ، ولم يعمد إلى تخريج مافيه من نصوص شعرية ونثرية إلا فى القليل النادر جداً ، ولم يترجم لأحد من الأعلام ، كما لم يقم بتحرير النص وتصحيحه تصحيحا دقيقا إذ تناثرت فى الكتاب أخطاء وتصحيفات وتحريفات كثيرة إلى جانب التصرف فى النص بإضافة كلمات ، أو عبارات فى صلب النص دون الإشارة ، أو التنبيه على أنها إضافة منه حتى لا يتوهم متوهم أنها موجودة فى الأصل ، مما يتنافى مع أصول التحقيق ، ويمكن أن نورد نماذج من ذلك لبعض التصحيفات والأخطاء والإضافات التى لم ترد فى النص على النحو التالى :

أولاً : التصحيفات والأخطاء :

المسلسل	الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١	٢٥	١	اشتبشر	استبشر بالسين المهملة
٢	٢٦	١٤	اختلال الوزن في قول الشاعر	والصواب نقل كلمة « بها » إلى صدر البيت ليكون هكذا « فأجل جفونك فيه تجل صداً بها »

فأجل جفونك فيه تجل صداً
بها لولا انبراء جماله لم تبره

٣	٣٦	٦	الأزهير	الأزاهر : ليستقيم وزن البيت
٤	٣٦	٦	بِسوسى : بكسر الباء	بَسوسى : بفتح الباء
٥	٥١	٢	أمّا لها أشفار	مالها أشفار : بدون ألف وبدون تشديد
٦	٥٦	٥	يمنى	يمينى
٧	٦١	١٦	تأنيبها	تأنيبنا
٨	٦٧	١٥	الجذاله	الجزالة
٩	٦٨	١٥	ضمّنت بالمسك	ضُمّخت بالمسك
١٠	٨٩	٥	مكتشفا	منكشفا
١١	٨٩	١١	الغذائر بالذال المعجمة	الغدائر بالدال المهملة
١٢	٩٠	٢	من جزل بالزاى	من جذل : بالذال المعجمة
١٣	٩٣	٤	لا يَخاف	لا يُخاف بالبناء للمجهول حيث إن القافية مرفوعة

المسلسل	الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٤	٩٦	١٤	أهوى : بالواو	أهدى : بالدال المهملة
١٥	١٠٠	١١	لراعى الطرب	لداعى الطرب
١٦	١٠٠	١٥	حبال الحديد	حبال الحرير
١٧	١٠٨	١١	بيتين أنيقتى التشبيه	بيتين أنيقى التشبيه
١٨	١٢٩	١١	المعشُوقَيْنِ : بصيغة المثنى	المعشُوقِينَ : بصيغة الجمع
١٩	١٣٠	٢	سُوسن : بضم السين	سَوسن : بفتح السين
٢٠	١٤٠	٨	أنا بِهَيْئته	فى الأصل (دهراً بهيئته) وكتب فوقها « آنا » وقرأها الناشر خطأ « أنا » والصواب إذا أثبتنا القراءة الثانية « آنا » بالمد من الآن .
٢١	١٤٣	١٥	لا أعدمنا الله جاهُهُ : بالضم	جَاهَهُ : بالفتح إذ لا يجوز أن تكون فاعلًا لا عرفاً ولا شرعاً
٢٢	١٥٢	١٣	وبالنَّأى والقدح	بالناى : بدون همزة إذ أن النأى بالهمزة البعد ، ولا مناسبة فى ذلك من حيث المعنى .
٢٣	١٥٤	٦	بيض غُلِّقت : بالقاف	غُلّفت بالفاء إذ هو المناسب للمعنى ففى اللغة يقال غلف لحيته بالطيب والحناء والغالية : لطخها .

* * *

ثانيا : التصرف بالإضافات فى الأصل دون التنبيه أو الإشارة :

١ – تكملة بعض الأسماء على نحو ماجاء فى الصفحة السابقة حيث قال المؤلف (ولأبى عمر) فأكمل الناشر الاسم (أحمد بن فرج الجيانى) ومثل ذلك ماجاء فى ص ٩ ، ١٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٦ ، ٤٩ .

٢ – ص ٥٣ س ٤ أضاف (أنا) بين « من » « وأفديه » فى رسالة الوزير أبى حفص .

٣ – ص ٥٣ س ١٣ – أضاف (الله تعالى) فى رسالة أبى حفص نفسها .

٤ – ص ٥٨ س ١٥ – أضاف (والنرجس) .

٥ – ص ٥٨ س ١٨ – أضاف (ذلك) .

٦ – ص ٧٢ س ٥ – أضاف تكملة صدر بيت ابن الرومى
(شتان بين اثنين) .

٧ – ص ١٠٤ س ٧ ، أشار المؤلف إلى بيتين ذكر بأنهما سبقا ، فجاء الناشر وأورد البيتين دون الإشارة إلى ذلك فى الهامش .

* * *